

أمام الكتابات التي تقدم نفسها بمعزل عن الضمائم القانونية الكافية: أفعال سلطة أو عقود خاصة، وقليلًا ما تكون هذه الأخيرة مؤكدة بصورة رسمية. فلا هؤلاء أو أولئك جليرون مع ذلك بكثير من الاحترام^(١). في ٢١ أبريل ١٨٣٤، وقبل حاكمة الجسيمات السرية كتب تيه إلى حاكم منطقة الراين - المنخفضة: «أوصيكم بتقديم أكبر عناية من خلال تقديم ما لديكم من الوثائق حتى ترفع الدعوى الكبرى^(٢)». والأمر المهم الذي ينبغي إضائه هنا هو مراسلات كل القوضيين، إنها الصلات السرية لأحداث باريس، وليون، وستراسبورج، إنها بكلمة واحدة، تكشف وجود مؤامرة كبيرة تستهدف فرنسا بأسرها، إنها بدون جدال، وثيقة رسمية معدة جيدًا. أما فيما يتعلق بخداع المرائق المخترمة وفق القواعد والمزمنة، فإن أقل خبيرة بالخاصة تكفي لكشفها. ما من أحد يجهد أن الأعمال المحررة أمام موثق والمؤسسة بصورة أكثر نظامية تعج بكثير من عدم الدقة المقصودة^(٣). وأتذكر^(٤) أنني وقعت بالأمر تاريخيًا مسبقًا بخطي في أسفل محضر أمرت به واحدة من كبريات إدارات الدولة^(٥). في هذا الشأن لم يكن أبانوا أكثر رهافة^(٦). أعطى في هذا اليوم، في هذا المكان، كان هذا ما يقرأ المرء لاسفل الوثائق الملكية. غير أن الاطلاع على تقارير رحلات الملك سيكشف أكثر من مرة أنه في اليوم الذي يقال إنه مكث فيه نجله في أماكن عدة. من هذه، سنجعل أعمال عديدة من إسحاق العبيد، لا أحد يرعم، دون جنون، إدعاء التزوير، أنها حدثت بدافع الرحمة المحضة بينما يمكننا نحن أن نضع، في مواجعتهم، قانون الثورة الحرة.

لبيد أنه لا يكفي قط ملاحظة الخداع. ينبغي أن تكشف أيضًا دوافعه. ألا يكون ذلك أولاً باقتضاء أثره بصورة أفضل. وظلالا يظل هناك حول أصوله، فسيظل به شيئًا ما

(١) هذه الفقرة البائدة هناك: لكن قبل قبول وثيقة على أنها أصلية فإن التبررون.. حلت محل أربع فقرات غائفة.

(٢) أفي هذه المصطلحات.

(٣) لدى غرق باريس.

(٤) كبيرة أو صغيرة.

(٥) لشخصيات.

(٦) في النسخة الأولى كانت هذه العبارة أكثر نظرًا بشكل ملموس: الذي شخصيًا ذكريات حديثة حيث وقعت

بعد فوات الأوان على محضر إقامة في لسيه بالأقاليم مؤرخًا بيوم حيث بمعرق السلطات ذاتها بفرش تجيب

قائمة مصوبات إدارية وقعت اسمي، كنت مختبرًا في باريس لدواعي مرضية.

(٧) آثار مثالا..

الفصل الثالث

النقد

١- لمحة عن تاريخ المنهج النقدي

إن أبسط رجال الشرطة سداجية^(١) يعرفون جيدًا أن أقوال الشهود لا تؤخذ بالضمانة على محمل الجد^(٢). حتى لو أدى ذلك إلى عدم الاستفادة المرجوة دائمًا من هذه المعرفة النظرية. وكذلك الأمر ذاته فيما يتعلق بكل الشهادات التاريخية، التي تنبها منذ زمن بعيد إلى عدم المراقبة عليها بشكل أحسن. ونسلك تجربة قديمة قدم الإنسانية تقريبًا، علمنا أن هناك أكثر من وثيقة قدمت على أنها قادمة من جهة^(٣) معينة، ولم تكن كذلك في الواقع. فكل القصص يمكن النظر إليها في مرحلة ما على أنها غير حقيقية، كما أن الآثار المادية يمكن بلورها أن تزور. وكان الشك غالبًا ما يأتي كرد طبيعي وسريع ودفاعي أمام كبيرة^(٤) ما هو مزور، في فترة العصور الوسطى، فبالجبر، يمكن لأي شخص أن يكتب أي شيء، كما كتب، في القرن الحادي عشر، نيبيل ريفي من مقاطعة اللوردين في دعوى ضد رهبان كانوا يرفعون في وجهه براهمين موقفة. كما أن «منحة الإمبراطور قسطنطين» - هذا الوثيقة المدهش، الذي وضعه أحد رجال الدين الرومان، في القرن الثامن الميلادي، باسم سيزار الذي كان أول إمبراطور مسيحي - تم التشكيك بها، من المحيطين بالإمبراطور الورع أوثون الثالث بعد ثلاثة قرون. فوثائق الماضي المزورة كانت تلاحق منذ أن كانت هناك وثائق تقريبًا. ومع

(١) - حتى.

(٢) كمثال زمن بعيد.

(٣) من فترة أخرى أو من.

(٤) كخاصية مميزة لثقة التقليدية. ومن فرط إيمانه بالماضي، يتهم به الأمر للاختراع.

ذلك، فإن نزعة الشك من حيث المبدأ ليست موقفًا عقليًا أكثر تقديرًا، ولا هي أكثر فراءة من سرعة التصديق، تلك التي يتوافق معها بسهولة كثير من العقول الأكثر بساطة.

وخلال الحرب الثانية، عرفت بيطريًا طيبًا، كان لسبب لا يخلو من الوجهة يرفض باستمرار تصديق أخبار الصحف، ولكن هل كان هناك رفيق ما بالصدفة^(١) يث في أذنيه المتبتهين أغرب العجائب؟ وكان هذا الرجل يصدقها بسهولة شديدة^(٢).

كذلك فإن النقد المؤسس على مجرد الحس السليم، وهو الوحيد الذي مورس طويلاً، والذي يجذب، عرشًا، بعض العقول، لم يكن في إمكانه أن يذهب مسافة أبعد. لكن، ما هو، في الحقيقة هذا الحس السليم المزعوم في أغلب الأحيان؟ لا شيء سوى جمع من مسلمات غير عقلانية ومن تجارب معممة بشكل سريع. هل يتعلق الأمر بالعالم الطبيعي؟ إنه ينكر التساؤلات وينكر عالم إيشتاين، وتعامل مع رواية هيردوت على أنها خرافة، عندما دوى أن الملاحين عندما كانوا يدورون حول إفريقيا وأوا ذات يوم النقطة التي كانت تطلع منها الشمس وتعتبر من يمينهم إلى يسارهم.

هل يتعلق الأمر بأعمال إنسانية؟ الأسوأ أن الملاحظات المتسمة هكذا إلى ما هو أبدي، إنها هي مأخوذة بالضرورة من لحظة قصيرة جدًا من المدى الزمني. وهنا يكمن العيب الرئيسي للنقد الفولتيري مع أنه منتشر جدًا في الغالب، ليست الغرائب الفردية موجودة فقط في كل الأزمنة، فهناك أكثر من حالة نفسية مشتركة في الماضي تبدو لنا غريبة، لأننا لم نعد نتوافق معها. ويبدو أن الحس السليم لا يجعلنا نصدق أن الإمبراطور أو ثون الأول استطاع أن يكتب لصالح البوابات تنازلات غير قابلة للتضد عن أراض، وهو أمر يتناقض مع مواقفه السابقة، وأن من يأتون بعد ذلك لا ينبغي عليهم وضع هذه التنازلات في الحسبان. وينبغي الاعتقاد جيدًا، مع ذلك، أنه لم يكن لديه عقل مبنى بصورة راسخة تمامًا مثلنا. وإن، بشكل أكثر دقة، فقد كانت توضع في زمنه مسافة يثير امتدادها الدهشة بين الكتوب والعمل - حيث إن الامتياز كان صحيحًا بصورة لا تقبل الشك.

(١) لارد فعل، أقل استثنائية بكثير مما نتجبه أحيانًا.

(٢) لقد يكون الشيء به في حرية فطار، أو في نهاية إحدى المخطات.

انطوائيت، لم تكن هي كاتبها، حيث حدث أن زورت في القرن التاسع عشر. ويأتي بعد ذلك الحداد في المضمون. وبالمثل نجد سيزار في كتابه تعليقات، الذي لم يشك أحد في نسيه إليه، قد قام عن وعى بما فعله، بكثير من التشويه وكثير من الخلف. وكذلك التمثال القائم في سان دوني لقلب لو هاردي، إنه يمسك حقًا الشكل الراحل للملك كما تم تنفيذه بعد وفاته، غير أن كل شيء يشير إلى أن النحات اقتصر على إعادة إنتاج نموذج للملك متفق عليه ولا يحمل من صورة الملك إلا الاسم^(١). والحال أن مدين الشكليات من الكذب يطرحان مشاكل منفصلة، ويطرحان حلولًا لا تتعلق بإعادة هذا أو ذاك. إن أغلب هذه الكتابات، التي وضعت تحت اسم مفترس تكذب، بالقطع أيضًا في مضمونها^(٢).

هل تكشف وثيقة مفترضة لشارلمان عند القمص أنها كتبت بعد قرنين أو ثلاثة قرون؟ كل شيء يدفع إلى الرهان على أن أعمال السخاء التي تسبب الشرف للإمبراطور قد اخترعوها أيضًا. وحتى هذا الأمر، مع ذلك، قد لا يقبل مقدمًا. لأن بعض الأفعال اخترعت بغاية وحيدة لتكرار أن الوثائق أصلية تمامًا، والتي كانت قد فقدت. وثيقة مزورة يمكن أن تقول، بصورة استثنائية، شيئًا حقيقيًا.

قد يكون من قبيل التكاليف التذخير بالسكس أن النهايات الأكثر تأكيدًا في مصدرها الملحق ليست بأي شكل - بسبب هذا التأكيد - شهادات مطابقة للواقع^(٣). لكن قيل أن تقبل وثيقة على أنها حقيقية على البحريين أن يبللوا جهلًا شاقًا حتى يقيمونها في موانئهم، ولا يملكون بعد ذلك نزعة راسخة ليتقبلوا تأكيدها. إن الشك يردد، طواحية بصفة خاصة

(١) في النسخة الأولى، القطع القابل مختلف بشكل واضح.

(٢) هل للتزوير من سبب آخر في الحالة العادية؟ لقد علم التاريخ المعاصر سمومًا للتزوير. فالبعض يمتد به «الوطي»، وهو لم يكن وطيًا على الإطلاق والواقع النسوية له تبعات كثيرة عن الحقيقة.

(٣) إلا بد من التركيز على قاعدة الحس السليم. لأنه مهما بدت وكأنها شيء عادي فإنها لم تطبق أبدًا بدقة. ليس من المناسب هنا تجريم الرأي. ولم يعد الزمن هو الزمن الذي يستطيع فيه المرء أن يعزو البسطة هذا القول المأثور: «إنه في الحقيقة. إذن هو أمر حقيقي». البروتاجندا تدمر نفسها بنفسها من خلال تجاهلها. في أياها هذه، أخبار الصحف كما في المنشورات الرسمية ترواجه من قبل الجماهير، بعدم تصديق من حيث المبدأ، وهو أمر بالنسبة للصحبة العقلية ليس أقل خطيرًا من التصديق الأعمى كما كان في السابق. ولغرض، أن هذه على أية حال لم تكن حالة عامة كما كان يعتقد البعض.

فإذا ما ظهرت ملامح الفترة المروفسجية، فيها هنا يكون التزوير واضحا، فإذا ما كانت الوثيقة بدون تاريخ، هنا فإن الأمور مثبته بشكل قريبي. وكذلك الأمر ذاته مع الأكيولوجي الذي يقترح تصنيف أدوات ما قبل التاريخ، من خلال المصنوع والحضارات أو اقضاء أكثر العاديات الزرورة، فهو يخصص، ويقرب - ويميز بين الأشكال أو إجراءات التصنيع وفقا لقواعد، متشابهة^(١) - بقوة بين الجانبين. لدينا صورة المورخ نصير أقل فأقل صور هذا الدعي العام التحمهم إلى حد ما كما ترسمه بعض القرويات التمهيدية، وهي صورة تفرض ييسر ملامح سيرة الطابع، إذا لم نأخذ حذرنا في هذا الشأن، فالمورخ ليس بالشخص الساذج، فهو يعرف أن شهوده يمكن أن يتخذوا أو يكذبوا. لكنه، قيل أي شيء، يشغل بجعلهم يتكلمون حتى يفهمهم. وبالطبع ليس من الزايب التي يمكن أن نغفلها للمنهج النقدي أنه استمر بنجاح في توجيه عملية البحث نحو هذه الغاية.

مع ذلك، قد تكون هناك إرادة سيرة لنفي ذلك: فالشهادة السيرة لم تكن هي الدافع الوحيد الذي أثار الجهود الأولى نحو تقنية الحقيقة. إذ تنظر هناك الحالة البسيطة والتي ينبغي بالضرورة أن ينطلق من خلالها، من أجل تطوير تحليلاته.

٢- في ملاحقة الكذاب والخطأ

من بين كل السموم القادرة على إفساد الشهادة، يشكل الكذب^(٢) أكثرها يروءا. والكذب [بصوره] يمكن أن يأخذ شكلين. إنه أولا الخلفاء حول المؤلف وتاريخ الشهادة: من قبيل التزوير بالمعنى القانوني للكلمة. فكل الخطابات المنشورة باسم مارى الشهادة^(٣) [التي تحت بصري...]. ثم نحل على: لتسجلا غير متسل بالمصنوع الرسولي. بعض الوثائق عمالية من المؤثرات الكرونولوجية التي كان ينبغي على أن انحصار: لأنه قد يحدث ربا في عدد من الأكاذيب (...). لتصنيفها من خلال المصنوع والحضارات وأدوات البشر في مرحلة ما قبل التاريخ - وهو تصنيف وحده سيسمح بتفسير المؤثرات الصلابة - وبالتالي الإجراءات ليست مختلفة بصورة محسوسة عن تلك التي يستخدمها الخبير المستعنى لتسج الأثر، على سبيل المثال، التزويرات العديدة التي يشهد بها، كل عام، سوق تجارة الآثار المصرية القديمة.

(٢) هذه العبارة، نحل على ثلاثة عبارات مختلفة.

وقد حدث التقدم الحقيقي في ذلك اليوم الذي بدأ فيه الشك يقوم بدور الفاحص كما يقول فولني، وحيث وضعت تدريجيا قواعد «موضوعية» تسمح بالميز بين الحقيقة والكذب. وقد أوحى قراءة اليسوعى بايبروك لكتاب «حياة القديسين» شكلا لا يجد نجاحا وإرث فترة بدايات العصر الوسيط بكاملها، فهو يعتبر كل الشهادات المروفسجية المحفوظة في الأدبيرة مزورة. بينما كان مايون يجيب إجابا بمكس ذلك، وكان يرى أن هناك، بدون شك، شهادات مفيدة تماما، أو معدلة، أو محرفة، كما أن هناك أيضا شهادات حقيقية، وهكذا يمكن التمييز بينها. وتعتبر هذه السنة - سنة [١٦٨١] سنة نشر (الديبلماتيك^(٤)) علم الوثائق، تاريخا عظيما في تاريخ الفكر الإنساني - حيث تأسس نقد وثائق الأرشيف بصورة نهائية.

وكانت هذه، على أية حال، اللحظة الحاسمة في تاريخ المنهج النقدي. وقبل ذلك كان للنزعة الإنسانية في العصر السابق تردداتها وحدوسها. لكنها لم تذهب بعيدا في هذا الشأن. وليس هناك شيء أكثر وضوحا من فترة في كتاب مونتاني «محاولات»، حيث يبرر فيه لتأسيس نقلة بعض القصص الخرافية. وهو شأن، يرى معه أن على اللاهوتيين والفلاسفة أن يناقشوا «التصديقات العامة».

لم يكن للمؤرخين أن «يسردوها»، ألا كما تقدمها لهم المصادر. أي «أن يقدموا لنا التاريخ كما يتلقونه أكثر مما يرونه هم». وتعبيرات أخرى، يعتبر مشروعا تماما النقد الفلسفي المستند إلى تصور معين للنظام الطبيعي أو النظام الإلهي، وقد يفهم المرء أن مونتاني لم يأخذ في حسابه معجزات «فيسباسين» Vespasian: وكذلك معجزات أخرى كثيرة. غير أن الفحص، التاريخي بصفة نوعية، لشهادة ما على ما هي عليه لا يوضح على نحو جيد كيف كانت ممارستها ممكنة. فعمق البحث يستعجز فقط في مجرى القرن السابع عشر، وهو القرن الذي لم يضع المرء عظمته الحقيقية دائما في المكان الذي ينبغي، ولا سيما نصفه الثاني^(٥).

لقد كان لدى البشر أنفسهم وعى بذلك في هذه الفترة لديهم. وكانت الفترة ما بين

(٥) البعض ترجمها بصورة خاطئة على أنها «ديبلماتية»، بينما الأمر يتعلق بكتاب وثائق مهد لإنشاء علم المهود والوثائق انطلاقا من الكلمة اليونانية ديبلوما والتي تعني الوثيقة الرسمية. (الترجم).

(٢) هذه الفترة تستبدل قريتين للنسخة الأولى مع عبارات مختلفة بقدر كاف.

١٦٨٠ و١٦٩٠، مكاناً عائلاً^(١)، حيث سادت إدانة «التزعة البيرونية»^(٢) في التاريخ وصارت موضة هذه الفترة. وقد كتب ميشيل ليفاسور معلقاً على مصطلح «قالوا» أو «قيل»: «تتمثل الاستقامة العقلية في ألا تدرك الأمور بخفة، وأن نعرف كيف نشك في رواية كثير من القاءات». وحتى كلمة نقد [التي لم تكن تعنى شيئاً، حتى هذه اللحظة، سوى نوع من الحكم التدوقي] انتقلت آنذاك إلى معنى محك الصدق. ولم يكن المرء يستخدمها إلا بعد أن يقدم نوعاً من الاعتذار عما سيتلوها. لأنها لم يكن لها استخدام مقبول عملاً. وكان لها رونق تقني. وشيئاً فشيئاً بدأت تكتسب أراض جديدة. وكان بوسوه يستخدمها بخلر: عندما كان يتحدث عن «مؤلفينا التقليديين»، فعندها يمكن أن ننخيل ارتفاع أكتافه. بيد أن رشار سيمون يضمنها في عناوين أغلب مؤلفاته. والأكثر حذراً لم يلبس عليهم [من جهة أخرى] ما اكتشف عنه هذه الكلمة، من أنها تشكل اكتشاف منهج [ذي تطبيق عالٍ تقريباً]. فالنقد هو «نوع من شكلة تبرزنا وتقودنا في الطرق المظلمة من العصور القديمة، مما يجعلنا نميز بين الحقيقي والزائف»، هكذا كان يقول إلياس دوين Ellies du pin، وبايل^(٣) بصورة أكثر وضوحاً أيضاً: «إن السيد سيمون قد قدم في هذه «الإجابة» الجديدة عدة قواعد للنقد. يمكن أن تستخدم ليس فقط في فهم الكتابة، وإنما أيضاً في القراءة مع شمرة كتب أخرى».

ولنحصر بعض تواريخ الميلاد: بليبروك. الذي، إذا كان قد أخطأ حول بعض المراتب فإنه يحفظ مكانه في المرتبة الأولى بين المؤسسين للنقد المطبق في التدوين التاريخي. وذلك في عام ١٦٢٨، ومايون، ١٦٣٢، ورشار سيمون، والذي تهيمن أعماله على بدايات تأويل الكتاب المقدس، في عام ١٦٣٨، ولنصف من خارج هذه الجماعة متبحرين علميين بالمعنى الحرفي للكلمة^(٤)، فهناك اسبيوزا صاحب «رسالة في اللامورت والسياسة»، وهو عمل رئيسي خالص في النقد الفيلوجي والتاريخي وذلك أيضاً في عام ١٦٣٣.

(١) تخلياً بيدل.

(٢) البيرونية هي نزعة فلسفية شكلية تقدر أنه كل حقيقة هي احتمالية وهي متسورة إلى بيرون الأخرى (٢٧٥ ق.م - ٢٤٥ ق.م). (الترجم)

(٣) أقبل ليه وكلي.

(٤) الورقة رقم ١١١-٥، البانط بكلمات باللسي الحرفي للكلمة والتشبيه بـ «تجيرات أخرى» هي نتيجة كتابة جديدة في النسخة الأصلية والنسخة الكربونية. وتبقى بالكامل في المخطوط الأصلي مستعمدة متاع مع تصحيحين.

بوسائل العثور عليها من جديد، وهو ما يساوي، الخضوع لقاعدة عالية من الصدق^(١). إن رأينا العام المسمم بالمعتقد والأساطير، حتى الأقل عداءاً للتزوير، قد فقد مهمة التحقيق. وفي اليوم الذي قد ننصح فيه في حقه على قياس قيمة معرفة عبر مسارتها في شئ الرقية، مقدماً، للتشديد، فإن قوى العقل ستحقق واحداً من أكبر انتصاراتها. أنه أثناء نظمتها تعمل ملاحظتنا المتواضعة، وتلمس إحالاتنا الصغيرة موقعها والتي يستخرج منها، اليوم، كثير من العقول الكبيرة^(٢).

لقد كانت الوثائق التي عاجلها المتبحرون الأوائل، في كثير من الأحيان، كتابات تقدم نفسها بنفسها، أو كانوا يقدمونها بصورة تقليدية، على أنها مؤلف أو لزم من محدد، فهم بيرون عن قصد هذا الحدث أو ذاك. لقد كانوا يقولون إنها تمثل الحقيقة؟ والكذب المسماة بالموسوية هل تعود لموسى حقاً؟ وكذلك كلوفيس، هل كانت الشهادات التي تحمل اسمه موقعه منه؟^(٣) وكم تساري روايات سفر الخروج؟ هذه هي المشكلة. غير أن، بمقدار ما كان التاريخ يسير في اتجاه استخدام شهادات لا إرادية أكثر فأكثر، وبمقدار ترققه عن الاقتصاد على تقسيم التأكيدات [الصريحة] للوثائق، عليه أن يرى إذا ما كان ينبغي عليه أيضاً أن يستخرج منها المعلومات التي لم تكن تريد أن تفصح عنها.

والحال أن القواعد التقليدية التي أثبتت مصداقيتها في الحالة الأولى قد أظهرت أيضاً فعاليتها في الحالة الثانية. إن تحت بصري كمية من موثيق العصور الوسطى. البعض منها مؤرخ، أما البعض الآخر فلم يؤرخ له. وفي الحالة التي يظهر فيها تاريخ الوثيقة ينبغي التحقق منه: لأن الخبرة علمتنا أنه يمكن أن يكون مزوراً. وهل تنقصنا أدلة على ذلك؛ من المهم إساءة البيت من هذا الأمر. وفي الحالتين تتبع الوسائل ذاتها من خلال الخط (إذا كان الأمر يتعلق بنسخة أصلية) ومن خلال الحالة اللاتينية للوثيقة، ومن خلال المؤسسات التي تشير إليها والمظهر العام للوثيقة، وهي أمور يعتقد أنها تتوافق مع الاستخدامات التي يمكن أن يعرف المرء عليها بسهولة لدى فر نسيين مشهورين منذ حوالي عام ألف.

(١) إكدي في هذه اللحظة إلى جوارى، كتاب مهم عن اللبنا قبل فترة الإصلاح. (...) مثل هذا الكميات الذي أعلن اكتشافاً ورفض عرص التجربة التي قادته إلى هذا الاكتشاف لأنه كما يقول: «يرجع هذا الأمر قارياً».

إنهم جيل [بالعلمي الأكثر دقة للكلمة] ارتسمت حدوده أمامنا [مع وضوح مذهن، لكن]، وإن كان ينبغي علينا مزيد من التدقيق، إنه جيل ولد [على وجه التحديد] في اللحظة التي ظهر فيها «خطاب في المنهج».

نحن لا نقول: جيل من الديكارتيين. كان ماينون، حتى لا نتحدث عن سواء، راهبًا ورجلًا [أرثوذكسيا مع بساطة] قد ترك لنا آخر كتبه رسالة في «الموت المسيحي». وقد بتشكك المرء في أن يكون قد عرف عن قرب تلك الفلسفة الجديدة [والتي كانت موضع اشتباه آنذاك من قبل كثير من الناس الوريثين]، وأكثر من ذلك، قد بتشكك فيما إذا كان له مصادفة، بعض الأنوار، فربما عشر فيها على كثير من الموضوعات المستحسنة. ومن جهة أخرى - مهما ما قد يبدو في بعض الصفحات، وربما الشهيرة جدًا لكلود برنارد - فإن الحقائق البدئية ذات الطبيعة الرياضية، والتي كانت مهمة الشك المنهجي، لدى ديكارت، هي تمهيد الطريق، إذ تقدم قدرًا محدودًا من الملامح المشتركة مع الاحتمالات الأكثر فأكثر قربًا من المنهج التاريخي، مثل العلوم العملية، عندما ترضى نفسها بمهمة الاكتشاف. بيد أنه، من أجل أن تطبع فلسفة بعينها جيلًا بكامله، ليس من الضروري أن تسلك سبيلها تمامًا بصورة حرة ولا أن تخضع أغلب العقول^(١) لأفكارها بشكل آخر سوى التأثير المتبادل، الذي غالبًا ما يكون شبه لا واعي. [ومثل «العلم» الديكارتى] فإن نقد الشهادات التاريخية ضرب صفحا^(٢) عن عمليات التصديق السابقة عليه. [مثل العلم الديكارتى أيضًا] فهي لا تسير في هذا الانقلاب الكبير على كل الركائز القديمة إلا بغرض الوصول عبر هذا الطريق إلى يقينيات جديدة (أو إلى احتمالات كبيرة) تكون من الآن فصاعدًا مختبرة كما ينبغي. [بتعبيرات أخرى]، إن الفكرة التي تلهمه^(٣) [تفترض أن تحولًا ذاتيًا تقريبًا للتصورات القديمة للشك. وأن تشكل هذه اللغات أتمًا أو أن نجد فيها، على النقيض، نوعًا من الرقة البلية، فإنها لم

(١) - خاصية التأثير.

(٢) يعود تعبير ضرب صفحا، أو جعلها صفحة بيضاء إلى جون لوك عندما أشار إلى أن الدفن البشرى يولد غالبًا من العارف ثم يكسبها بال تجربة ويرى المؤلف هنا أن الشك الديكارتى جعلنا ندخل من كل ما هو قديم (تصبح معتقداتنا بمثابة صفحة بيضاء) من أجل خلق قواعد جديدة للاعتقاد فيما بعد. وكان أرسطو، من قبله، قد رأى أن هذا الجزء الذي يسمى عقلًا ليس شيئًا بالفعل قبل أن يفكر. (الترجم).

(٣) أي أن الشك.

فيما يبدو من أن تضع نصب أعيننا نحن أنصار التاريخ الذئوى هذه التلمسات البلية لناهجنًا: إن كل هذه العادات السيئة، الناشئة من تراكم الأحكام المسبقة المتناقضة تؤدي مع ذلك إلى إفساد قضية نبيلة في جوهرها. إنها تتأمر بتوجيه حشد القراء، بدون دفاع، نحو بريق زائف لتاريخ مزعوم تقيب منه الجدية وتسيطر عليه الصور البراقة والمواقف السياسية المخازة التي تعتقد أنه بإمكانها استعادة مكانها من خلال ثقة متعالية بالنفس، وهنا نجد موراس وبنيفيل وبلبيخانوف^(١) يؤكدون ما قد تشكك منه فوستل وكولانج وهنري بيران. وبين التحقيق التاريخي كما يتم أو كما يأمل أن يتم، والجمهور الذي يقرأه يظل هناك بدون شك، سوء فهم. والشجار الكبير حول الملاحظات [أسفل الصفحة] الذي ينخرط كلا الفريقين بسببه في ثنائية عبثية ليس أقل هذه الأعراض دلالة.

تمثل الهوامش أسفل الصفحات لكثير من التبحرين جاذبية تصل إلى حد الدوار وسيكون من العبث، بالقطع، ملء الفراغات البيضاء في أسفل الصفحات، كما يفعلون، بالإحالة إلى البيبلوجرافيا، بينما قائمة معلة بها في بداية الكتاب قد توفر، على أغلبهم، أو في الحالة الأسوأ، تبعد عنهم، من خلال كسلهم الكامل، تطريبات طيلة، والتي كان سكانها بارزًا في متن العرض ذاته؛ وذلك بطريقة تؤدي إلى أن الأكثر إفادة في هذه الأعمال ينبغي البحث^(٢) عنه في الألفية. بيد أنه عندما يشكو بعض القراء من أن أقل سطر أسفل النص إنما يشوش على تفكيرهم، وعندما يدعى بعض الناشرين أن زياتهم الدائمين إنما هم - بدون شك أقل إفراطًا في حساسيتهم، في الواقع، مما يحاولون تصديره أنا - بماثون العذاب لجرد رؤيتهم أية صفحة ملوثة بهذه الهوامش، فإن هذه الحساسيات تثبت فقط انقلابها أمام أبسط المبادئ المميزة لأخلاق العقل، لانه خارج اللعب الحر للفناتريات، فإن أى تأكيد لرأى لا يحق له أن يظهر إلا بشرط أن يكون في الإمكان التحقق منه، وبالنسبة لمورخ، فإنه إذا استخدم وثيقة ما، فعليه أن يقوم بتوضيح مصدرها بأقصى الطرق، وذلك

(١) بلبيخانوف: من أوائل الماركسين في روسيا (١٨٥٦ - ١٩١٨)، له كتاب هام بعنوان: «تطور النظرة الواحدة للتاريخ»، والكتاب مترجم إلى العربية - دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٦٩. (الترجم).

(٢) بالتحاسب.

ينظر إليها قط حتى هذا الوقت، إلا كموقف عقل سلبى تمامًا، كمجرد غياب. ويمكن التأكيد من الآن فصاعدًا على أنها يمكن أن تصبح أداة معرفة عندما تدار بصورة عقلانية. إنها فكرة يقع ظهورها في لحظة محددة تمامًا من تاريخ الفكر.

• منذ هذا الحين تأسست، بالإجمال، القواعد الأساسية للمنهج النقدي^(١). وكان مداها العام يصل تدريجيًا حتى القرن الثامن عشر بين الموضوعات التي غالبًا ما تتركها جامعة باريس في مسابقة الأجر جاسيون للفلاسفة، إذ يرى المرء فيها قضية بعينها، وهي تعطى نغمة حديثة بصورة مثيرة للفضول: «شهادات بشر على الوقائع التاريخية». لا يعني هذا [بالقطع] أن الأجيال التالية لم تقدم^(٢) للأداة^(٣) النقدية كثيرًا من الإضافات، خاصة أنها عجمت كثيرًا استخدامها ووسعت بشكل معتبر مجال تطبيقها^(٤).

لقد مورست تقنيات النقد، على الأقل بطريقة متباعدة، وبصورة مقصورة إلى حد ما على حفنة من البحريين في تأويل الكتاب المقدس وبعض الفضوليين. والكتاب الذين يسعون إلى تأليف كتب تاريخية حلقة بشكل ما، فلما اهتموا بالتألف مع هذه القواعد [المعملية] التي يرونها دقيقة جدًا وإن كانوا يضعونها بشقة في حسابهم في نتائجهم. والحال أنه ليس بالأمر الجيد أبدًا، وفقًا لتعبير هيبوليت، أن يخشى الكيميائيون أن «تتسخ الأيدي». أما بالنسبة للتاريخ فإن خطر مثل هذا الانقسام بين الإعداد والتفصيل له وجه مزدوج. [إنه] ينال أولاً وبصورة قاسية من الدراسات الكبرى في التفسير. وهذه الدراسات لا يتقصها فقط، هذا الواجب الأساسي للتحقق [المبحوث عنه بآناة]، وهي المحرومة، بالتالي، من

(١) الورقة المرقمة ٦ - ١١١ البائدة بكاملها. - بالإجمال، والنتيجة - فاعلموا، لم يعد مدائن من أجل.

هي خلاصة كتابة جديدة في النسخة الأصلية والنسخة الثانية، وبقايا الاثنين. والنسخة الكبرى المستعملة هنا تحتوي على شطب أشهر إليه أدناه. النسخة الأصلية لم تتضمن أى تصحيح نجده في كتاب «أول خطاب على التاريخ الأكاديمي»، لأب فلوري - ظهر في... تاريخ قبر مقروء - عرض معقول جدًا لم يعمل دالبيروت في الأسكو لويديا إلا إعادة نسخة.

(٢) تطبيقًا قليلًا.

(٣) الاعتقاد.

(٤) هنا، في النسخة الأولى كانت توجد فقرات بأكلمات والتجرون الأوفل، ومستهدفة به فتقار العاديات المصرية القديمة، وانطلت من مكانها في النسخة النهائية.

هذا التجدد الأبدى لهذه الدهشة التي تولد دائمًا، والتي تعتبر المعاناة مع الوثيقة هي وحدها القادرة على منحنا إيحاء، ويصير من المستحيل عليها الهروب من التآرجح^(١) بين بعض القضايا [النسبية] التي يفرضها العمل الرويتي. غير أن العمل التقني ذاته يعانى من ذلك أيضًا. فعندما لم يعد مدائن من أعلى أصبح يخاطر^(٢) بالارتباط بصورة لا نهائية بقضايا لا معنى لها أو مطروحة بشكل سبى. وليس هناك من تأخير جهد أسوأ من ذلك الذي يقوم به البحريون علميًا عندما تدور جهودهم في الفراغ، وليس هناك شيء عظيم يوضع في غير موضعه أكثر من استعلاء المنهج النقدي عندما يدرك أنه ذاتي.

وببساطة كافحت الجهود الواحدة هذه الانحطاط بالقرن التاسع عشر. أو قد أعادت المدرسة الألمانية وريتان وفوستيل دوكر لانج للتوسع العلمى مرتبته الفكرية الهامة. وسار المؤرخ على طريق تأكيد هذا التوسع. لكن، برغم ذلك كله، هل حسمت المباراة؟ قد يكون هناك كثير من التفاؤل إذا اعتقدنا بذلك. [كثيرًا، ما كان العمل البحثي يستمر في السير غالبًا بطريقة عشوائية، وبدون اختيار مبرهن عليه لنقاطه التطبيقية. خاصة وأن الحاجة للنقد لم تنتج كذلك في الوصول بصورة كاملة إلى عقل الناس المستقيمين (بالمعنى القديم للكلمة)، أولئك الذين يعتبر رضاهم من الأمور الضرورية، بدون شك، للصحة العقلية لأي علم، وبشكل أكثر خصوصية لعلمنا نحن^(٣). وإذا كان البشر، وهم موضوع دراستنا، ينفقون في فهمه، فكيف يحق لنا أن نشعر أننا قد أنجزنا أكثر من نصف مهمتنا؟

ومن جهة أخرى، ربما لم نعرف قط، في واقع الأمر، كيف نقوم بهذه المهمة. فالنزعة الباطنية للمجهمة التي يصير أفضل من لدينا في التلغف بها أحيانًا، في إنتاجنا للقراءة الشائعة، وذلك في الأولوية التي نمنحها لمقرر مدرسه، بالنسب: حيث هموس التعليم بصورة سبينة محل محل تعليم يتسم بالتأليف الفعلي، فالحدود المفرد الذي ما إن يخرج من المعمل، حتى يمتعنا

(١) تلوع من.

(٢) الورقة المرقمة ب 7. III البائدة بكلمة وفطارة والنتيجة به ضائع جذابة هي نتيجة لكتابة جديدة في النسخة الأصلية والكروية، مستعملة هنا، تتضمن عدة كلمات مسوغة وتصحيحات نافرة باليد: «النسخة الأصلية

تبقى على حالها ولا تتضمن أى تصحيحات باليد».

(٣) التلوعى الجيد بـ ل.

بصورة مستمرة بين مع وضد وذلك عندما يقتصر المرء على مجرد هذه الملاحظة. ولكن يصير الشك أداة معرفة، ينبغي، في كل حالة خاصة، أن تتمكن من تقدير درجة التشابه والتوافق بدقة. وهذا فإن البحث التاريخي، مثل أنظمة علمية أخرى للعقل، يقطع طريقه مع الطريق الملكي لنظرية الاحتمالات.

ويعني تقدير احتمالية واقعة ما قياس الفرص التي تملكها للظهور^(١). وهو ما يطرح سؤالاً: هل من الشروع الحديث من وجود احتمالية لواقعة تتسمى للماضي؟ بالطبع ستكون الإجابة بلا، بالمعنى المطلق، فالمستقبل وحده غير محقق بينما الماضي قد أصبح معطى لم يعد يسمح بمكانة لما هو محتمل. وقبل إلقاء زهر النرد، فإن احتمالية أى وجه قد يظهر واحداً من ستة احتمالات، وحين يفرغ وعاء النرد تلاشى المشكلة. وقد يحدث أن تتردد، فيما بعد، إذا ما ظهر في هذا اليوم رقم ثلاثة أو خمسة. إن عدم اليقين يوجد حيث بدأ خلنا، وبداخل ذاكرتنا أو ذاكرة شهودنا، وليس في الأشياء.

ومع ذلك، فإنه بالنظر جيداً، لاستخدام البحث التاريخي لفهم «الاحتمال»، فإننا لا نجد في ذلك شيئاً من التناقض^(٢). والمؤرخ الذي يتساءل حول احتمالية واقعة ماغية، لماذا يحاول ألا يفعل، في الواقع، غير الانتقال، عبر حركة مقدمة للعقل، قبل هذه الواقعة ذاتها، وذلك كي يحكم على الفرص المتاحة لها كما كانت تظهر عشية تحقق هذه الواقعة؟ وتظل الاحتمالية إذن داخل المستقبل. غير أن خط الحاضر وقد تراجع، بشكل ما، بصورة خيالية، هو المستقبل سابقاً والذي تأسس بقطعة مما يشكل الآن الماضي بالنسبة لنا. وإذا كان الواقع قد حدث فعلاً، فإن هذه التأملات لا قيمة لها إلا كالعاب متافيزيقية. فما هي الاحتمالية في واقعة ميلاد نابليون؟ أو واقعة إفلات هتلر كعسكري من الرصاص الفرنسي عام ١٩١٤، ليس ممنوعاً أن تتسلى حول هذه القضايا، بشرط ألا تتعامل معها إلا كما كانت فعلاً: حيل لغوية بسيطة موجهة لإضاعة الجانب العرضي وغير المترقع في مسيرة الإنسانية، وليس لها أى علاقة مع نقد الشهادات. هل يبدو ذلك وجود الواقعة ذاتها غير مؤكد؟ هل

(١) هذه الفقرة وكذلك الفقرات السبع التالية لها شكلت ثلاث ورقات بخط اليد مرقمة بـ III 32، III 33، III 34، والتي استخدمت في النص المكثوب على الآلة.

(٢) لمع التعريفات التي سبقتها.

إن هناك بعض الشروط التقنية تلك التي يبدو أنها تشجع مثل هذه التشرهات. فعندما أدين الجاسوس بولو في عام ١٩١٧، نشرت صحيفة يومية في السادس من إبريل وقائع إعدامه. في الواقع كان الإعدام قد تقرر في هذا اليوم لكنه لم^(١) يحدث^(٢) [فعلاً] إلا فيما بعد بأحد عشر يوماً. لكن الصحفي كان قد أعد «ورقة» مقدماً، مقتنعاً أن الحدث سيتم في الموعد المقرر له، ورأى أنه من غير المفيد التحقق من هذا الأمر. لا أعرف ما الذي تعنيه الطريقة، بالتأكيد، هناك أخطاء ثقيلة أيضاً تقع بصورة استثنائية. لكن، حتى تسير الأمور بشكل أكثر سرعة - لأنه ينبغي قبل أى شيء تسليم الشرة في موعدها - فإن تحقيقات المشاهد المتظرة تكون معدة أحياناً قبل الموعد، وهذا الافتراض ليس فيه شيء مستبعد الحدوث. وتقريباً ينبغي أن تكون مقتنعين دائماً أن اللوحة، بعد الملاحظة، ستعدل [إذا حدث شيء] حول كل النقاط المماثلة، وبالتقابل قد يشك المرء في أن كثيراً من الرتوش التي وضعت في الملامح^(٣) الثانوية، والتي وصفت بأنها ضرورية للون وأن ما من أحد لا ينوى مراجعتها. وعلى أية حال هذا ما يعتقد الدنيوي أنه استشفه. وبأمل المرء أن يأتي إنساناً من أهل المهنة وقدم، في هذا الشأن، أنواراً^(٤) صادقة. لم تجد الصحافة بعد شخصية يمكن مايبورن أو بابروك [ما هو مؤكد، أن الانقياد لتقاليد قديمة كإلاحة أجيبة، أو كاحترام الأنماط السيكولوجية الشائعة، كهوس مغبر للإحباب، فكماها ليست بعد في طريقها لأن تفقد مكانتها لدى كوكبة صانعي الأكاذيب].

ومن الخلداء المحض والبسيط حتى ذلك الخطأ غير الإرادي مماثلاً توجد درجات مختلفة. ونظراً للتحويل السهل لتصير المفرة [الأكثر] صدقاً، عندما تواتيها الفرصة، كذبة، والاختلاف يفترض جهلاً يفرض منه كسل العقل المشترك بين أغلب البشر. فكم هو مريح جداً قبل^(٥) بجامل لوهم ذات طبيعة عفوية في مصدره، مما يلذعاب هوس المحطة.

(١) لمع ذلك.

(٢) أتو تاجيل.

(٣) تولى.

(٤) كدراسة صادقة حول عمارات التحقيقات قيد أكثر من أى شيء آخر ربما لممارسة التاريخ المعاصر.

(٥) أتو للتضخيم.

فلننظر إلى الحادث الشهير المسمى بـ «طائرة نورمبرج». وبرغم أن الحادث لم تتضح أبعاده تمامًا، فإنه يبدو أن طائرة فرنسية تجارية كانت تحلق فوق المدينة قبل إعلان الحرب بعدة أيام. ومن المحتمل أن يكون قد تم النظر إليها على أنها طائرة عسكرية. وليس من المستبعد أمام سكان مملكتهم أنشراح الاشتباك القادم، أن تكون آنذاك أصوات القنابل مسطرة، هنا وهناك. ومن المؤكد، مع ذلك، أن حكّام الإمبراطورية الألمانية كانوا يملكون كل الوسائل للقضاء على هذه الإشاعة، لكنهم قاموا بذلك باستقبالهم لما يدور تحقّق، حتى يجعلوا منها باعثًا على الحرب، وهكذا كذبوا [تمامًا]. لكن دون شيء من الخيال، ولا حتى^(١)، ربما، بدون أن يكون لهم [أولاً] وعى جلي وواضح بكذبهم. ويتم الاعتقاد بالإشاعة الثرية لأن هناك من يرى أنه من القيد الإيران بها. ومن كل أنماط الكذب، فإن تلك الأكاذيب التي يضعها المرء بنفسه لا تحسب قط بين الأقل شيوعًا^(٢)، وتحتوي كلمة صدق مفهومًا كثيرًا إلى حد ما، فلا يمكن أن يتم تناوله بدون أن ندخل عليه كثيرًا من الدقائق.

ولا يمكن أن يكون بعيدًا عن الحقيقة أن كثيرًا من الشهود يمدّعون بكل حسن نية. وهنا نحين اللحظة إذنه، أمام المؤرخ ليستمر النتائج المهمة التي سلحت بها طريقة الملاحظة لما هو معيش، منذ عدة عقود، حقلاً جديلاً^(٣) تقريبًا هو [سيكولوجيا الشهاديات]. وهذه المكتسبات، بوصفها تم دراستها، هي، فيما هو أساسي، تأتي على النحو التالي:

[إذا صدقنا]. وليام دروسان - تيوري، فإن تلميذه وصديقه سان برنارد أصابته الدهشة ذات يوم عندما أدرك أن الكنيسة التي كان يمارس فيها صلواته عندما كان راهبًا شابًا تمتلك في واجهتها ثلاثة نوافذ. وكان يتخيل دائمًا أنه ليس بها سوى نافذة واحدة. وحول هذا الملمح^(٤) فإن مؤرخ القديسين، بدوره، يتدهش ويعجب: أي خادم مثالي^(٥) لله في

(١) أجل الأقل لدى البعض منهم.

(٢) أحط، ولا حتى بين الأقل.

(٣) أكمل.

(٤) لورأخرون مشاهيرنا.

(٥) بدءًا من كلمات وسكانه (قارن الصفة السابقة) وحتى إلى خادم مثالي، إلى جوار الأصل، مستعادة هنا

تجسّد عدة تصديقات بخط اليد، وترصد بالكاميرات بدون أي تصديقات يابذة، مرقية بـ 14 III.

مطابقة للنسخة الأولى.

لا يمكن أن يزدهر ثم يتلاشى، فإن هؤلاء المشككين لا يعتمدون برهانًا سلبيًا: ذلك أن هناك حلقات تتحطم وحضارات تتلاشى.

عندما تقرا وتكتب، إجمالاً أن الأب دولاهاي قال أن الكنيسة تحفل في اليوم ذاته باثنين من خدامها الموتى، وهما من إيطاليين، وأن اعتداء الواحد والآخر منهما كان نتيجة قراءة حياة القديسين، وأن كلا منهما قد أسس نظامًا دينيًا تحت الاسم ذاته، وأن هذين النظامين قد انجاء في النهاية، من قبل اثنين من البايوات يحملان الاسم ذاته، وبالتالي لن يكون هناك شخص لم تراوده الرغبة في الهتاف بأنه شخص واحد تم تضعيفه عن طريق الخطأ، وسجل في قائمة كتاب أساء الشهداء وسافر القديسين باسمين مختلفين.

ومع ذلك، فإنه من الحقيقي أيضًا أنها دخلا بهذا الشكل إلى الحياة الدينية عبر مثال الشتر الورقة. لقد أسس سان جان كولومباني جماعة الجيزوات (Jesuates)، وأناس دولويولا أسس جماعة الجيزويت، ومات الاثنان في ٣١ يوليو، الأول بالقرب من سين (sieme) وذلك في عام (١٣٦٧)، والثاني في روما عام (١٥٥٦)، وقام البابا كليمو التاسع بحل جماعة الجيزوات، أما جماعة المسيح فقد حلها كليمو الرابع عشر. أعلم أن هذا المثال جارج، لكنه ليس المثال الوحيد بدون شك. وإذا كان، من جراء كارثة أرضية، لم يبق لنا من الإنتاج الفلسفي لهذه القرون الأخيرة إلا بعض الملامح الشاحبة، فكيف من تدقيقات واعية للمبتجرين علميًا سبذل للكشف عن مستقبل وجود اثنين من المفكرين وهما أيضًا برطانيين ويحملان ذات الاسم: يكون^(١)، كما أنها يتفقان على تكريس مساحة كبيرة للمعرفة التجريبية؟ وقد أداان السير بايس كثيرًا من الأساطير الرومانية القديمة لسبب وحيا هو أن الأساء الواردة بها تظهر بحقب متشابهة إلى حد ما. ومع كل احترمانا للنقد الموجه لسرقات النصوص، والذي يتميز بنفى التكرارات العفوية للأحداث أو الكلمات، فإن المصادقات تشكل واحدة من الغرائب التي ترفض أن تخفى ساحة التاريخ.

غير أنه قد لا يكفى الإقرار، إجمالاً، بإمكانية وجود لقاءات مجانية. وقد يتأرجح النقد

(١) I. - ذلك الذي - فصلنا عن حقيقة حجة تتجاوز أكثر من ثلاثة عام، وقلم يتسنى للمرء أن يحكم على هذه التواريخ المختلفة عليها.

يمكن لبعض الأفراد أو الجماعات الصغيرة أن تهرب منه. ونحت ذريعة أن بسكال لم يكن يكتب مثل أرنو، وأن ميزان لم يكن يرسم مثل بوجرو، هل سنرفض القبول بالتواريخ المتعارف بها للبروتستانت أو جبل سانت - فيكتور؟ وهل نستنتج بأن أدوات البروتز الأكثر قدمًا مزورة، حيث لم تكن هناك أى صناعات أو آلات في العصر البرونزي إلا آلات مصنوعة من الحجارة؟

هذه الاستنتاجات الزائفة ليس لها من الخيال شيئًا، ومتكرون القائمة طولية للوقائع التي أنكرها الروين البحثي منذ البدء، لأنها كانت غير متوقعة: منذ عبادة الحيوانات المصرية والتي ابتهج بها فولتير كثيرًا وحتى الآثار الإنسانية للفترة الثالثة من الحقبة القديمة Tertaire. وبالنظر إليها عن قرب، فإن المفارقة المتهجئة لا توجد إلا في الظاهر. كما أن برهان التشابه لا يفقد صلاحياته. من المهم فقط أن يكون هناك تحليل أكثر دقة لمحدد الفروق الممكنة ونقاط التشابه الضرورية، لأن لكل أصالة فردية حدودها. فأسلوب بسكال لا يقتضى إلا له، لكن نحوه وخزونه من المفردات تعود لعصره. وميثاقنا المقترض في ١٨٠، عبر الاستخدام الذي يصنعه من لغة غير مستخدمة قد يكون مختلفًا بوضوح عن الميثاق الأخرى المعروفة حتى الآن، وحتى يحكم عليها بالقبول والتصديق ينبغي أن تكون لغته الفرنسية مطابقة، بالإجمال، لحالة اللغة المستخدمة في هذه الفترة، عبر النصوص الأدبية، وأن تتطابق المؤسسات المذكورة مع تلك القائمة في هذه اللحظة.

لذا فإن المقارنة النقدية لا تقنع، بالطبع، بتقريب الشهادات حول الصعيد ذاته من تلك الحقبة الزمنية. فالظاهرة الإنسانية تمثل دائمًا حلقة من سلسلة تعبر العصور. وفي اليوم الذي يأتي فيه فرانسوا-لو كاس جديد، ملقبًا على مائدة الأكاديمية بمجموعة من الأوتوجرافات، زاعمًا أن بسكال ابتكر قبل أينشتاين، النسبية المعممة، فهل نتعامل معها مقدمًا على أنها مزورة؟ لم يكن من الواقع في شيء أن بسكال كان غير قادر على العثور على ما لم يكن معاصريه قادرين على اكتشافه. غير أن نظرية النسبية تأخذ نقطة انطلاقها من تطور سابق طويل للامات الرياضية، ولدى إنسان مهيا كان حجمه لا يمكنه بقوة عقريته فقط أن يقوم مقام عمل الأجيال هذا. وعندما نرى بالقابل أن بعض العلماء، أمام الاكتشافات الأولى لرسومات العصر الحجري القديم، يتقدمون أصالتها أو تواريخها تحت إدعاء أن فنا من هذا القبيل

مثل هذا الانقصال عن أمور العالم، بدون شك كان برنارد فيها يبدو يعيش حالة شروء غير شائعة إلى حد ما، وإذًا، على أية حال، من الحقيقى كما يروى عنه أيضًا أنه حدث له فيها بعد أن تجاوز [زهام] يومًا في رحلة على سواحل بحيرة لبيان بجينيف بدون أن يشعر بذلك. ومع تجارب عديدة تشهد بذلك: إذ ينخدع بشكل كبير حول الواقع التي ينبغي، فيها يبدو، أن تكون معروفة لنا بشكل أفضل، إنها قضية ليست في حاجة إلى أن تدرجه من بين أمراء الصوفية. وكذلك طلبية البروفيسور كالابريد في جنيف، فقد أظهروا، أثناء تجارب شهيرة، أنهم أيضًا غير قادرين على الوصف الدقيق لرواق-باسيهم.

[والحقبة أن] في أغلب العقول لا يجد العالم المحيط بنا إلا أجهزة التقاط ضعيفة. ولننصف إلى ذلك أن الشهادات، في واقع الأمر، ليست سوى تعبير عن ذكريات، كما أن الأخطاء الأولى للإدراك قد تغامر دائمًا بالالتصام المقدس مع أسلها المرواغ هذا الذي أداته من قبل أحد حقوقيين^(١) القدامى.

عندما نتخذ عدم الدقة لدى بعض العقول شكلًا بالولوجيا - هل يكون من غير اللاتق أن نصف هذا الاختلال العقلي باسم دمرش لامارتين^{٩٨} وهما يمكن من أمر، فإن كل إنسان يعرف أن هؤلاء الأشخاص ليسوا بصورة طبيعية، هم الأكثر إجحافًا في إطلاق أحكام قاطعة. لكن إذا كان الأمر على هذا النحو من وجود شهود أكثر أو أقل شبهة وثأجيدًا، فإن الخبرة تثبت أنها لم تتفق قط بشأن أقوال هي أيضًا جديرة، بالثقة حول كل الموضوعات في كل الظروف. وينفسد نظامان من السببية بشكل رئيسي [حتى] لدى الإنسان الأفضل موهبة، صحة الصور الذهنية. البعض يركز على الحالة الرقية للملاحظة. من قبيل الإرهاب، على سبيل المثال، أو التأثير العاطفى. والبعض الآخر يركز على درجة انتباهه. وفيها عدا بعض الاستثناءات، لا يرى المرء، ولا يفهم جيدًا إلا ما يتطر إدراته. فعندما يزور طبيب أحد مرضاه: فأننى سأصدق أكثر فيها يتصل بمرضه والذي فحص سلوكه بعناية، أكثر من حكمه على أدات النرفة والتي يجتمل ألا يكون قد ألقى عليها نظرة إلا لاثًا. لهذا السبب، برغم الحكم المسبق الشائع بقدر كاف، فإن الأشياء الأكثر ألفة - كما في حالة سان برنار

(١) ألو الخاص بالأمز.

وكيسة البندكتين - بحسب غالباً بين تلك الأشياء التي من الصعوبة بمكان الحصول على وصف دقيق لها: لأن الألفة تقضي، بالضرورة تقريباً، إلى اللامبالاة.

والحال أن كثيراً من الأحداث التاريخية لم يكن ممكناً لها أن تلاحظ إلا في لحظات إنسحاب عاطفي عتيقة، أو عبر شهود قد يكون انتباههم قد استبصر في وقت جد متأخر، تحت وقع المفاجأة، أو بسبب الحاجة إلى العمل المباشر، وبالتالي كان غير قادر على أن يعرض بقوة كافية نحو القسائم التي يعزو لها المؤرخ اليوم، عن حق^(١)، أهمية كبرى. إن بعض الحالات كانت شهيرة، مثل أول إطلاق نار، والذي أثار التمرد في ٢٥ فبراير ١٨٤٨ [أمام مقر وزارة الخارجية]، من أين كان على الثورة أن تخرج بدورها، هل كان ذلك الإطلاق من المكر؟ أم من الجمهور؟ يبدو أننا لا نعرف ذلك أبداً^(٢). ومن جانب آخر، كيف يمكن منذ الآن فصاعداً أن نأخذ على محمل الجد، لدى الإخباريين، تلك اللوحات الوصفية الكبرى، والرسومات [الدقيقة] للثياب، وللإشارات، والحفلات، والمشارك الحزبية، ومن ثم بأي تقليد مشدّد تحفظ أدنى إشارة حول صحة كل هذه الأشياء التي تظهر ثانية كشيء متواضع لدى المؤرخين الرومانتيين، بينما حولنا لا يوجد شاهد ليس في إمكانه الاحتفاظ بدقة، بالفواصل في شموليتها، والتي بشأنها قد استحوينا بسذاجة كبيرة أولئك المؤلفين القدامى؟ وفي أفضل الأحوال تعطينا هذه اللوحات ديكور الأحداث كما، في زمن الكاتيب، وتجعلنا نتخيل ما يمكن أن تكون عليه. وهذا الأمر له بعد تفقي للغة، لكنه ليس هذا نوع من المعلومات التي ينشدها هواة المناظر الحلاقة من مصادرهم بشكل عام.

من الملائم أن نرى، مع ذلك، إلى أي استنتاجات تسوقنا إليها، هذه الملاحظات المتشائمة، ربما نلزم دراستنا في الظاهر فحسب، من الآن فصاعداً، وهي لم تفصل بعد إلى البنية الأولية للماضي. وتظل كلمة بايل صائبة دائماً. «أبدأ لن يعترض المرء بعمل ذي قيمة ضد هذه الحقيقة التي تقول أن قيصر هزم بومبي وأنه، بشكل ما من حيث البدا، قد لا يجد المرء ما هو أكثر اهتزازاً من هذه الجملة «قيصر وبومبي وجنا، ولم يكونا مجرد تعديل

(١) [تأمل].

(٢) أحياناً المحققون القضاة لم يصل إلى تحديد ما إذا كان مدير المصنع قد استخدم سلاحه قبل أو بعد القيام بالعمليات القتل بالهجوم.

بصورة غير دقيقة. وبعضها الآخر سيحدث بصورة استثنائية (من قبيل سعر «أصدقاء» أو بالعكس من خلال سعر المخدومين)، فقوائم الأسعار، التي كانت تسجل الأسعار المتوسطة الشائعة في الأسواق، لم يكن لها أبداً أن تكتب بعناية كاملة. لقد كانت هذه الأخطاء شائعة على نطاق كبير عن طريق الأسعار ذاتها. لأنه سيكون من غير المحتمل أن تسير الأسعار دائماً في الاتجاه ذاته، فإذا كانت التراجع إذن، هي التي تحققت بواسطة معطيات مخففة، مما تؤكد أسعار هؤلاء بالوليك، وما ذلك إلا لأن الاتفاق في الإجمال، وقوائم التزوير، وقوائم التواطؤ تبدو لنا، عن حق، غير متصورة. فما هو منتج بصورة لا تقبل التقليل من أهمية الشهادات قد أنقضى إلى ذلك الاستنتاج من أن اتفاقهم النهائي لا يمكن أن يأتي إلا من واقع كانت وحدته الأساسية، في هذه الحالة، خارج مجال الشك.

إن ما تكشف عنه عمليات فحص الشهادات أنه لا يمكن تناوُلها بصورة متصلة، فكل المادى العقلية وبالمثل كل الخبرات التي تنفرد ذلك الفحص تقريباً تكشف عن حدودها في مبادئ معاكسة أو خبرات إذا ما دفعناها قليلاً. ومثل أي منطق يجترم نفسه، فإن النقد التاريخي له تناقضاته، أو على الأقل، مفارقاته. ولكن يتعرف لشهادة ما بأنها أصيلة فإن المنهج يفرض، كما رأينا، أن تقدم تشابهاً مع الشهادات المجاورة لها. وإذا طبقنا، مع ذلك، هذا البُداً حرفياً فما الذي قد يصير عليه هذا الاكتشاف؟ ذلك أن من يقول بالاكشاف يقول بالمفاجأة وعدم التشابه. كما أن العلم الذي يقتصر على ملاحظة ترى أن كل شيء يحدث دائماً كما كنا نتوقه، قلنا يكون مشمراً ولا مسلياً في الممارسة. ولم نعلم من جديد على ميثاق مكتوب بالفرنسية حتى الآن (بدلاً مما هو مكتوب باللاتينية من قبل عام ١٢٠٤). ولتخيل أن باحثاً سيقدم لنا في الغد ميثاقاً فرنسياً مؤرخاً عام ١١٨٠ هل سنستنتج أن^(١) هذه الوثيقة مزورة؟ أو أن معارفنا كانت غير كافية.

من جهة أخرى، فإن الانطباع بالتناقض بين الشهادة الجديدة ومحيطها قد يؤدي إلى ألا يكون لدينا أصلاً آخر، وإنما يؤدي تدهوراً مؤقتاً لمعرفتنا، لكن يحدث أيضاً أن عدم الاتفاق قد يكون بين الأشياء بصورة أصيلة. وليس للتوحيد الاجتماعي كثير من القوة، بحيث

(١) يكون أن نبلى كثيراً.

من البيت ذاته، لكن على العكس، يستجوبهم محققون مخنفون لأن اعتراضاتهم تنوقف عن التطبيق فيما بينها. إن الاستنتاج السليم هنا هو أن القاصي كان يعمل الإحادات. وهذا ملمح اعتقد أن المحاولات القليلة يمكنها أن تقدم عنه، كما أقبل، ناذج أخرى على نفس القدر من الغريبة.

بدون شك، لا يظهر الدور الذي يشله ما يمكن أن نطلق عليه مبدأ التشابه المحدود في البرهان النقدي، وذلك في ضوء أكثر إثارة للفضول، الإجماع واحد من أكثر تطبيقات المنهج جيدة: ألا وهو النقد الإحصائي. فلنترض أنى أدرس تاريخ الأسعار في فترتين محددين لمجتمع محدد، ثم يأتي بمدى باحث ثل وثالث ويشرعون في القيام بالبحث ذاته، لكن مع عناصر تختلف عما لدى، وتختلف أيضًا فيما بينها. إذ توجد دفاتر الحسابات، ولوائح أسعار أخرى، ومن جانبنا كان كل واحد منا يؤسس التوسطات السنوية وعدد المؤشرات انطلاقًا من قاعدة مشتركة، هي رسوماتنا البيانية. والنتيجة هي أن المنحنيات الثلاثة تتقارب إلى حد ما. ومستصل إلى استنتاج أن كل واحد منا يقدم لحركة الأسعار صورة دقيقة بشكل عام لماذا؟

لا يكمن السبب فقط في أنه داخل وسط اقتصادي متناغم، كانت التقلبات الكبرى للأسعار تخضع بالضرورة إلى إيقاع موحد بصورة معقولة. لقد كان هذا الاعتبار يكفي، بدون شك، إلى إثارة الشك في المحتويات المنقولة بشكل كبير، ولكنه لا يكفي كى يؤكد لنا أن من بين كل الآثار الممكنة، فإن الرسومات الثلاثة البيانية تتوافق على إعطاء الحقيقة بالضرورة لأنها تتوافق في هذا الشأن. فثلاثة رزانات، مع موزنين مزورة بشكل مواز، مستقيم الرقم ذاته، وسيكون الرقم مزورًا. وترتكز عملية البرهان هنا بكاملها على تحليل لآلية الخطأ. وعن أخطاء التفاصيل هذه لا يمكن لواحدة من قوائم للأسعار الثلاثة إلا أن تكون مستثناة منها. وفيها يتعلق بالإحصاءات، فلا مفر منها تقريبًا. فلنترض حتى أننا استبعدنا الأخطاء، لتخصيص الباحث (بصرف النظر عن الاحتقار الأكثر فظاظة، فمن منا يتصرأ على القول بأنه على ثقة من أنه لم يتعثر أبدًا في الشبهة المرحية للمعايير القديمة؟). وإذا كان الباحث المتبحر على درجة من اليقظة، كما نتخيل، فدائمًا ما يستظل الكهائن التي تفرزها الوثائق هي ذاتها، فمس خلال الطيش أو سوء البية يمكن أن تسجل بعض الأسعار

بسيط للروح لأولئك الذين كتبوا سيرتهم! من الحقيقى إذا كان لا ينبغي أن يبقى من التاريخ إلا بعض الوقائع من هذا النوع مبيدة عن انفسير، فإن هذا التاريخ سيتخلص إلى مجرد تنابع في رموزات غير دقيقة ومدون أى قيمة عقلية كبرى. ولحسن الحظ ليس الأمر على هذا النحو. والأمصبات الوحيدة التي يتناو لها صمم نفس الشهادات [هكذا] بعدم يقين متكرو، إنها هي السوابق المباشرة تمامًا. ويمكن أن يقدرون حدث كبير بانفجار. ويمكن التساؤل: في أى شروط، على وجه الدقة، حدثت آخر صدمة للجزيئات الضرورية لانطلاق الغاز؟ لا مناسب، في النال، أن يكون علينا أن نقر بعدم معرفتنا. هذا أمر مؤسف بدون شك (أليس الكيميائيون في وضع أفضل منادائنا؟). لكن هذا لا يمنع قط ألا يبقى تكوين الخليط الانفجاري قابلاً للتحليل، إن تورده ١٨٤٨ - هذه الحركة المصممة بوضوح والتي اعتقد بعض المؤرخين، من خلال ضلال غريب، [بإمكاكهم] أن يصنعوا منها نمطا للحدث المجاني - مهدت لها منذ زمن طويل عوامل كثيرة ومتنوعة وفعالة للنداية أدركها توكيفل منذ البداية. هل كان إطلاق النار في شارع الكيوشين شيئًا آخر غير الشرارة الصغيرة النهائية؟

لهذا السبب، منرى كيف أن هذه الأسباب القريبة لا تهرب غالبًا وحسب، من ملاحظة مسؤلية، وبالتالي منا. وفي داخلها يوجد أيضًا ذلك الجانب المتميز لم هو غير متوقع وله «لصدفة» في التاريخ. إن بإمكاننا أن نمزى أنفسنا، بدون مشقة كبيرة، بأن مساواة الشهادات تخضع بصورة عادية أمام أحداثنا الأكثر إقناعًا. وحتى عندما تكون معروفة بشكل أفضل، فإن لقاءها مع السلاسل السببية الكبرى للتطور كانت تحتل بقايا لأعراض لن يتمكن علمنا أبدًا من حلها لوليس له: حتى في الأدماء بحلفها. أما فيما يتعلق بالركائز الحميمية للمسارات الإنسانية وتعبير العقليات أو الحساسيات والتقنيات والبنية الاحتجاجية أو الاقتصادية، فإن الشهود الذين نساقلهم في هذا الشأن قليلًا كانوا موضوعات هدت الإدراك الوقتى. لوعبر اتفاق موثق أدركه فولنبر[فإن ما هو أكثر عمقًا في التاريخ يمكن أن يكون أيضًا ما هو أكثر تأكيدًا في هذا التاريخ

كذلك ليست ملكة الملاحظة، للتنويع للندية من فرد إلى فرد، واقعة اجتماعية ثبته. بعض الفترات أكثر من غيرها نحددها محرومة منها. وعلى سبيل المثال، إذا كان تقدير العدد، يظل

من حيث تاريخها، ويعلمها أحد المحررون المتألقين هذه الرواية لقسمة في التخليص من هذه الملاحم التي أصابهم خيالها المفرط بالصمة. وهناك طرق مختلفة للتقليد، وتتبع وفقاً للقرء، وأحياناً وفق للموضوعات المشتركة لجمل معينة، ومثل أي موقف عقل آخر، لن يتم التسليم بها تحت ذريعة أنها قد تبدو لنا «طبيعية».

[لحسن الحظ يقع السارقون، في الغالب، بسبب أخطائهم. عندما لا ينهزمون تمردهم، فإن تناقضاتهم تكشف عن تزويرهم. هل كانوا يسعون إلى إخطاء ما استعاروه؟ إن بلاهة خدعهم تجعلهم يسقطون. وقد عرفت طائفاً في الليسية، أثناء كتابة موضوع إنشاء، كانت عينه مثقبة على واجب وميله وكان يقلل بحماية العبارات بالمثلوب، ومع كثير من روح المتابعة، غير المسند إليه إلى مستند، والبنى للمعلوم إلى مبنى المجهول، ولم ينجح إلا في تقديم نموذج ممتاز للنقد التاريخي إلى أستاذ.

وعندما تكشف عملية نقد، فحش منا بحسب اعتقادنا أمام تقنية الذين أو عدة شهرة لم يعد يبقى منهم سوى شاهد واحد. وقد أعطى إثنان من معاصري ماريو، وهما الكونت سيحور والجنرال بيليه، رواية مشابهة لروايته عن هذا العبور الزرع للاندروب. لكن سيحور جاء بعد بيليه، وقرأه، ولم يفعل سوى أن نسخ عمله. أما فيما يتعلق بالجنرال بيليه فقد كتب ما كتبه قبل ماريو، وكان صديقه واستمع إليه بدون أدنى شك وهو يتفاخر بانتصاراته الوهمية، لأن التبحر الذي لا يكمل كان يسعد عن قصده، بخلاف المألوف له، لنحق أسطورة لدى الأجيال القادمة. يظن ماريو إذن هو سلطانا الوحيدة. وعندما استنسخت - ليف عمل بوليب، حتى لو كان ذلك عبر تزيينه، فإن بوليب هو سلطانا الوحيدة. وعندما ادعى انهياره، أنه يرسم لنا شارلمان، فقد زال الملامات عن نودته أو حست الذي أعده ميتون، وهكذا لم يعد هناك، بالمعنى الدقيق، شهود على الإطلاق.

ويحدث آفي النهاية أن هناك، حلف ما يفترض أنه شاهد، يقف محرض وراء التزيير، ولا يريد قط أن يفصح عن اسمه. فمتدما درس روبر ليا محاكمة جماعة فرسان المبيد لاحظ أنه عندما يكون هناك متهمون يشتمون ليشتمين ويستجوبها المحقق ذاته تراهم يعرفون، بدون اختلاف، بالجرم ذاهباً والتجديفات ذاهباً. لكن عندما يكون المتهمون

ضعيفاً اليوم لدى أغلب البشر، فإنه لم يعد أيضاً شيئاً عالمية إلا بين كتاب حويلاب المصور الوسطى، فإدراكنا مثله مثل حصارنا كلاهما مطبوع بالرياضيات. ومع ذلك، إذا كانت أخطاء المشاهدات لم تكن محددة في التحليل الأخير إلا عبر ضعف الحواس أو ضعف الانتباه، فإن المورخ قد لا يكون أمامه، بالإجمال إلا النخلة عن دراستها الصالح عالم النفس. لكن، من الجانب الآخر فإن هذه الحوادث الدهنية، هي من طبيعة مشتركة بقدر كاف، والكثير من بينها يعود إلى الأسباب ذات الغزى بصورة محتلمة عن مناخ اجتماعي خاص. ولهذا السبب فإنها بدورها تأخذ في الغالب، أحياناً الكذب، قيمة وثائقية.

في شهر سبتمبر ١٩١٧، كانت فرقة المشاة التي أنتمى إليها تحت مواقع [على طريق دمشق] في شمال القرية الصغيرة برين (Breisne). وعملية مساعدة أصبح لدينا سجين. كان من قوات الاحتياط، وكانت مهنته تاجر، ومن مدينة برين (Brime) على الـ الويسر (Weser). ويعلمها بقليل وصنعتنا حكاية غريبة من الخطوط الخلفية. عن «الجاسوس الألماني» كما كان يقول تقريراً الرفاق المارغون بالأمر، «أني أعجوبة! لقد انتزعنا أحد مواقعهم الصغيرة، في قلب فرنسا. ما الذي يدهش المرء في هذا الأمر؟ تاجر مقيم، أثناء فترة السلام، على بعد عدة كيلومترات من هنا: في برين». الحديث المتهافت كان واضحاً. فلنحذر، مع ذلك، في أن تقدم تقريراً مبسطاً جداً عن ذلك.

هل يشير المرء، على وجه التحديد، إلى خطأ في حاسة السمع؟ سيكون الأمر، في كل الأحوال، نوعاً من التعبير غير دقيق بما فيه الكفاية. لأنه، أفضل من سوء السمع، لقد كان الاسم الحقيقي قد فهم بصورة سيئة بدون شك: لأنه بشكل عام غير معروف فلم يشد الانتباه، ومن خلال ميل طبيعي للعقل كان هناك اعتقاد بالإسكاف باسم مألوف مكانه. لكن هناك اعتقاد بما هو أكثر: في هذا العمل الأول من التفسير كان هناك تفسيراً ثانياً أيضاً وغير مشهور به متضمن في هذا الشأن من قبل. ذلك أنه في الغالب ما تكون الصورة مطابقة للحقيقة، فهناك حيل ألمانية صارت لها شعبية عبر روايات عديدة^(١). وكانت تداعب^(٢)

(١) لم يتح عند بدءنا
(٢) أكثر.

مفصلين، في لحظات زمنية مختلفة، أن يكررا الحركات ذاتها تمامًا. وكشهادة على الوقائع العسكرية التي تظاهر برسم ملاحظاتها، فإن واحدة من الصورتين على الأقل - إن لم يكن الإثنين - زائفة تمامًا.

هكذا يتأرجح النقد بين هذين الطرفين: التشابه الذي يبرر، وذلك الذي يتزعج المصادقة. إذا أن مصادقة اللقائات لها حدودها كما أن الاتصاف الاحتياطي من شبكة م، إذا أخذنا في اعتبارنا كل شيء، واهية بقدر كاف. بتعريفات أخرى، نحن نرى في الكون والميتس توحيدًا كافيًا بحيث يستبعد احتياطي وجود فروقات عميقة كثيرة. لكن هذا الموحيد كما يصوره لأنفسنا، يمتلك خصائص عامة كثيرًا. فهو يعترض - في ضوء تفكير - أنه بشكل م، عندما نتدخل إلى الإمام في الواقع، فإنه يشمل أعدادًا من التجميعات الممكنة، والتي تقترب كثيرًا من اللامتناهي لكي يكون تكرارها العفوي غير متصور. وهذا لا بد له من فعل لا أدى من التقليد، بحيث يستند نقد الشهادات في نهاية المطاف على ميثاقين فقط: للمشابه والمخالف، وللواحد وال متعدد.

وعندما نقترض فرضية النسخ نفسها، تبقى مهمة تحديد اتجاهات التأثير، فتنى كل ثنائي تنسأ، هل اغترفت الوثقتان من مصدر مشترك؟ وإذا افترضنا أن أحدهما، على العكس، كانت أصلية هل يعترف لها بهذا القرب إلا الإجابة مستقلة أحيانًا من قبل معايير خارجية. من قبيل التواريخ السببية إذا كان من الممكن تحديدها. أما وعند غياب هذه المساعدة فإن التحليل النفسي سيستأنف صلاحياته بمساهمة من الخصائص الداخلية للموضوع أو النص.

[من البديهي أنه لا يتضمن قواعد آلية. فهل ينبغي، على سبيل المثال، أن نطرح من حيث المبدأ كما يفعل بعض المتبحرين علميًا، بما، و، أن الم. اين (es remanente)؟^(١) بما دون ذلك الاختراعات الجديدة، بشكل يجعل للنص الأكثر وضوحًا والأقل استحالة فرصة أن يكون الأكثر قدمًا؟ في بعض الأحيان يكون هذا الأمر حقيقيًا، ومن تدوين إلى تدوين يرى المرء أرقام العدو التي تسقط تحت ضربات ملك آشوري تنضخهم بصورة غير طبيعية. لكن يجلد أيضًا أن تنمرد البديهة. إن «المواطن» الأكثر روعة لسان جورج» هي الأولى

(١) كلمة مستعارة

مباشرة تلك الحساسية الرومانسية للجواهر. واستبدال برين بيريم كان يتوافق كثيرًا مع هذا اليرسواس حتى لا يفرض نفسه، شكل ما، بصورة عموية^(١)

[والحال] أن هذه هي حالة عدد كبير من تحريفات الشهادات. فخطأ، دائمًا تقريبًا، موجه مقدمًا. خاصة، أنه ينتشر، ولا يأخذ شكله إلا بشرط التوافق مع الانتمايزات السابقة للرأي العام، ويصير حيث [مثل] المرة التي يتأمل فيها الوعي الجاهل ملاحظته الخاصة. إن كثيرًا من المنازل البهيمية تصنع في واجهاتها فتحات ضيقة، هدفها التسهيل على العمال نصب السقالات، وفي هذه الحيل لبرية للبناءين، لم يخطر ببال [المسكرا] الألمان قط عام ١٩١٤ أن يروا فيها كذلك قتلة، مدرين على القنص، إذا لم يكن خيالهم مليًا بالملوسات منذ زمن بعيد عبر الحروب من حرب رجال العصابات، والسحب لم تغير قط شكلها منذ العصر الوسيط. نحن لم نعد نرى، مع ذلك، لا صليب^(٢) أو سيوف معجزة. ونحم الكومست ذو اللذبة الذي كان يلاحظه أمبرواز باربه الكبير (Ambroise Pare) ليس مختلف في شيء فيها يبدو عن تلك التي تجوب أحيانًا سمواتنا. ومع ذلك كان قد اعتد أنه اكتشف فيه مجموعة من الأسلحة الغريبة. لقد كان الانقياد للحكم الكوني المبين قد تنصير على الدقة المتددة لنظرة وشهادته [مثل] أخبار كثيرة لا تستعلم عما تراه في الواقع، وإنما على ما كان المرء في زمنه يعتقد أنه من الطبيعي أن يراه.

ومع ذلك، حتى يصير خطأ شاهد، خطأ كثير من الناس كذلك، وحتى تتحول ملاحظة سببية إلى إشاعة كاذبة، لا بد أيضًا أن تكون حالة المجتمع مشجعه لهذا الانتشار. بالتأكيد، ليست كل الأنماط الاجتماعية، وبينها اختلافات كبيرة مشجعة. وفي هذا الشأن، فإن المتاعب غير العادية للحياة الاجتماعية التي عاصرتها أجيالنا السابقة تشكل خبرات كثيرة مغيرة لإحساسنا. أما تلك التي نماءها في الملاحظة الحاضرة، والحق يقال، فهي قديمة جدًا منا كي يحتمل الأمر تحليلًا دقيقًا لها هي الأخرى. بينما تسمح حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ بمسافة كافية.

(١) قارن هذه الفترة مع فترة أخرى عانته في كتاب *Mélanges historiques* ص ٥٣ (مقالة مشروء به). في الملاحظة ص ١٠١ من الطبعة الفرنسية)

(٢) كبر.

يعرف كل من كم كانت هذه السوات الأربع مليئة بالأخبار الرائقة، ولا سيما لدى المحاربين، وإن كان تكويها كما يبدو هو الجدير أكثر بدراستها داخل مجتمع الحنادق الخاص جدًا.

وكان دور الدعاية والرعاية - كل على طريقته - كبيرًا جدًا، لكن على العكس^(١) تمامًا ما كن يشطره^(٢) منها مؤسسا هذه المؤسسات، وهو ما أكد عليه بقوة أحد الكتاب الساخرين قائلًا: «الرأى الذى كان له الغلبة في الحنادق هو أن كل شيء يمكن أن يكون حقيقياً إلا ذلك الذى يأتبهم مطبقو نحا». لم يكن أحد يعتقد فيما تنشره الصحف، لأنها فضلاً عن أن لا تأتى بانتظام، فقد كانوا ينظرون لها على أنها مراقبة بشكل واضح. ومن هنا كان الانبعاث المجيد للتراث الشغامي، وهو بمثابة الأم القديمة للملاحم والأساطير. وبحركة فظة لم يجرؤ على الحلم بها أكثر المجريين إقداً، أعادت الحكومت بالغاها اقرون الماضية، عسكري الجبهة إلى وسائل إعلام، وهى حالة لروح تعود إلى العصور القديمة، قبل عصر الصحافة وقبل نشرة الأخبار وقبل الكتاب.

لا تولد الإشاعات على خط النار بشكل طبيعي. فالمجموعات الصغيرة كانت معزولة بشكل كبير عن بعضها البعض. ولم يكن للعسكري الحق في التنقل أبداً بدون أوامر، ولم يكن ليفعل ذلك إلا بتعريض حياته للخطر في الغالب. وكان الذين يتقنون في لحظات محددة يقومون بأعمال متشابهة مثل: ضباط الاتصال^(٣)، عمال التليفونات الذين يصلحون خطوط الاتصالات، وكذلك مراقبو سلاح المدفعية هذه الشخصيات المهمة كانت تصادق قليلاً العسكري البسيط. لكن كانت هناك اتصالات دورية^(٤) أكثر أهمية بكثير. وكانت الساحة الرئيسية لهذا العلم الصغير من المخاطر ونقاط المراقبة تتمثل في المصباح. ها حيث يأتى مرة أو مرتين في اليوم رجال الإمداد والتموين ويثرون فيما بينهم مع الأطباء، هؤلاء كانوا يعرفون الكثير لأنهم يقعون في نقطة تقاطع كل الوحدات، وكانوا

(١) خلافاً من ذلك.

(٢) كانت لدى الفرقة للتأكد أصلاً على هذا الوفاء من الشكك فيما هو مكتوب به.

(٣) ليس كل شيء.

(٤) أيضاً.

اجتماعية. وبعد أن تأكدت، بدون أدنى شك، في قيمتها العامة عبر خبرة واسعة للإسبانية، عندها تخرج مفاهيم التناقد الحامى، وضغط المدد الأكبر، والتقليدات الظاهرة التي يركز عليها، مع مفهوم الحصار ذاته.

ومع ذلك لا ينبغي أن يكون التشابه جدياً، إذ ستوقف آنذاك عن أن يكون في صالح الشهادة بل قد يقضى، على العكس، إلى تكذيبها.

يعرف أى شخص شريك في معركة والترو أن نابليون هزم فيها ولشاهد الأخرى، والذي قد ينفي الحرية مستعمل معه على أنه شاهد زائف. ومن جهة أخرى، أن يكون نابليون قد هزم في معركة والترو، فنحن نوافق على أنه قد لا يوجد، في اللغة الفرنسية كثيراً من الصروف المختلفة للتعبير عن هذه الواقعة، لو أن المرء اقتصر قليلاً على هذه الملاحظة البسيطة والفظة. لكن عندما يصف المعركة اثنان من الشهود، أو ما يفترض أنهم كذلك، هل يصغونها باللغة ذاتها، ومن رواية أخرى لو أن ذلك كان نتيجة تنوع ما لأساليب التعبير فهل يصغونها على وجه الدقة بالتفاصيل ذاتها؟ إن المرء سيخلص، بدون تردد، إلى أن أحدهما ينسخ الآخر، أو أنها ينسخان نموذجاً مشتركاً. ويرفض عقلنا، في الواقع، قبول أن اثنين من الملاحظين، في مواقع مختلفة في المكان بالضرورة ومن دون بملكات انتباه غير متساوية، هل يمكنهما أن يسجلا لحظة بلحظة تلك الوقائع ذاتها؛ ومن بين الكلمات العديدة لفظة الفرنسية، هل نجد كاتبين، يعملان بصورة مستقلة الواحد عن الآخر، يختاران المصطلحات ذاتها، والمجموعة بصورة متشابهة لرواية الأشياء ذاتها، وكانت كل من الروايتين تتناول لواقع بصورة مباشرة، فلا بد إذن أن يكون أحدهما يكذب.

إسا إذا نظرنا، كذلك، إلى أثريين قديمين مسمونين من السهر لرومة. هلمن حريقين. ويتعلقان بمعارك مختلفة. ومع ذلك يمثلان المارك تحت ملامح متقاربة تقريباً. ستقول الأركيولوج «واحد من النحاتين سرق الآخر، إلا إذا كان كل منهما يعيد رسم المشهد من خلال ورق شفاف لأصل واحد. لا هم فقط أن يفصل بين المارك مسافة زمنية قصيرة، وأن المارك كانت تدور دينا بين خصمين من هذه الشعوب ذاتها - مصرين ضد جيئين. نحن لا معرض على فكره، أنه في النوع الشاسع للسواقف الإنسانية، يمكن لعملين

ونقرر تحليل سيكولوجي لدى الشهود، واحد بعد آخر، لنقدّر الأسباب الفترضة للصدق والكذب والخطأ. وقد إتخذ في هذه الحالة، هذا التقدير طابع الدليل المطلق على وجه التقريب، ولم يكن ليتمثل في إظهار درجة من عدم اليقين في ظل ظروف أخرى. وعندما تتأسس استنتاجات على جرعات هشة، من المحتمل كثيرًا إلى المحتمل على وجه الدهد فإن هذا يعني تدهورًا كبيرًا.

[لكن هنا الآن، أمثلة من نمط آخرًا مثل ميثاق يقال إنه يعود إلى القرن الثالث عشر، وهو مكتوب على ورق، يسا كل الوثائق الأصلية لهذه الفترة، التي عثر عليها حتى هذه اللحظة، مكتوبة على رق المزال، وقد شكل الحروف يظهر مختلفًا جدًا عن الرسم الذي يلاحظه المرء على وثائق أخرى للفترة ذاتها، واللغة بأكملها الغريبة، وأسايلها كانت غريبة عن استخدامها المجمع عليه. أو أن حجم الآلة الزعوم أنها تعود إلى فترة العصر الحجري القديم، تكشف عن طرق صنع مستخدمة فحسب، في حدود علمنا، في زمن أكثر قديمًا منا اليوم. هنا نستصل إلى استنتاج بعينه من أن الوثيقة كانت زائفة وكذلك الآلة، لكن الأسباب كانت من طبيعة مختلفة.

والفكرة التي تقود البرهان، هذه المرة، هي أنه في الجيل ذاته، وفي المجتمع ذاته، يسود نوع من تشابه العادات والتقنيات القوية جدًا إلى درجة لا تسمح لأي فرد بالابتعاد بصورة محسوسة عن الممارسة العامة. ونحن نأخذ أمرًا على أنه صادق عندما يكون فرنسي، على سبيل المثال، من عصر لويس السابع يكتب حروفه بشكل مماثل تقريبًا لمعاصريه، وأنه كان يعبر بالصعظحات^(١) ذاتها الشائعة في هذا العصر تقريبًا، وأنه يستخدم المواد ذاتها، والمثل إذا ما كان هناك عامل من عهد القبائل المجذلية يستخدم منشارًا آليًا لصنع رؤس السهام، فإن معاصريه سوف يستخدمونه مثلًا فعل هو تمامًا. والبدني هنا، هو بالإجمال، ذو طبيعة

(١) ربما يعني أن طبع هذا ملاحظة مارك بلوخ التالي: «سمعت، في فترة شابي، شخصًا شهيرًا في العلم وكان مدير مدرسة الوثائق يقول لي: «باعتبار واضح: فيمكنني أن أصبح تاريخيًا مخطوط بدون أن أعطى ما يقرب من عشرين عام». لكنه لم يسر سوى شيء هو أن كثيرًا من الكتاب كانوا يعيشون أكثر من أجيال عائلاتهم وإذا كانت الكتابات أحيانًا تتمثل مع تقدم العمر، فإنه تادرًا ما تتكشف مع الكتابات الجديدة «سائدة». وكان يهين أن يرى في هذه الشك، حوالي عام ١٢٠٠، قصة تجوزوا السينيات كانوا لا يزالون يكتبون كما تعلموا، وكأنه حوالي العام ١١٥٠. في الواقع تأخر تاريخ الكتابة، بشكل غريب، عن تربع الكلام».

فوق ذلك، لديهم الامتياز البادر في أنهم يمكنهم تبادل بضعة كلمات يوميًا مع سائقي قطار إقليمي، وهم رجال عظميظين يقيمون بحوار راسية الأركان^(١) وهكذا، وفي لحظة، تنشأ علاقات هشة بين أوساط مختلفة بصورة متفرقة. ثم يقوم هؤلاء عبر الدروب والمنحدرات سقل أروانيهم محملة بالإمدادات ومعهم كذلك الملعومات الصحيحة أو الزائفة، والشوكة دائمًا إلى حد ما، وهي في كل الأحوال، مهبة هناك نحو صياغة جديدة. إنها منطقة تكرين الأساطير^(٢).

والحال أن التاريخ قد عرف أكثر من مجتمع يتحرك، بالإجمال، من خلال شروط مماثلة، وإن لم يجل من فارق، وذلك بدلًا من أن تكون نتيجة عبور أزمة استثنائية تمامًا، فقد كانت تمثل المسار الطبيعي للحياة. وهنا أيضًا، كن النقل الشفاهي هو الوحيد الفعال تقريبًا. ونحن أيضًا، نمرى الانصالات بصورة حصرية تقريبًا من عناصر متبادلة عبر وسطاء^(٣) متخصصين أو في نقاط اتصال محددة. لقد احتل باعة متجولون وشعراء مندسون وحجاج ومتسولون مكان الشعب الصغير التائه^(٤) في الممرات. وكانت اللقاءات استعصية تحدث في الأسواق أو بمناسبة الأعياد الدينية، وكان الأمر على هذا النحو أثناء فترة بدايات العصر الوسيط. ومن خلال تساؤلات كانت تجري مع المارة كان إخباريو الرهسان يقومون بعملهم بصورة جيدة. به كثيرًا دفاتر البومات التي كان يمكن أن يحققها إذا كان قد توير لهم الميل ذاته، الذي كان لمعرف العسكرية عادة. وكانت الأخبار الزائفة دائمًا بمثابة الطبق الرئيسي بامتياز لكل طليعات، ومن ثم أصبحت المقاربة بين الروايات المختلفة أكثر يسر نظرًا لملاحظات المذكورة بفراد هذه الجاهات. وكانت هذه الروايات تستدعي الحس النقدي. وعلى النقيض من ذلك، كان البعض يعتقد بقوة بالراوي الذي يحمل بطرون مختلفه عبر هادات طويلة، إشاعات الأراضى المحلدة^(٥).

(١) كوحى أحياء قوي لا والى مسكونة

(٢) كملطف، بصورة طليعية، أدوات لاصصال الأكثر ممتلاء والمختلفة في المسموع لهم بوجرد... مع عودس، وأحيانًا ما يجلبونه يأتي من أقاليم مدنية، ولدى كان مدنية حشو صياغ كان هناك تشكك كبير.

(٣) ليشكل ساء

(٤) كوستاويين.

(٥) لم يكن ينقى، مع ذلك، دمع وتقرب كثيرًا فقد كتب العرب، غير طليخ عديدة، تحرية مسهلة في التراجع =

٢- دراسة في منطق المنهج التاريخي^(١)

سبغل دائماً قد الشهادات، الذي يعمل على الوقائع النفسية، فثاً دقيقاً، وهو فن لا يوجد له وصفات قط. بيد أنه فن عقلاني أيضاً، يرتكز على ممارسة منهجية لبعض العمليات العقلية الكبرى، وفي كلمات هو فن له دياكتيكته الخاص والذي من الملائم السعي نحو اكتشافه.

فلمنصر أن شيئاً واحداً فقط بقي من حصارة احتفت، إلا أنه بالإضاهة إلى ذلك فإن شروط هذا الاكتشاف هي إقامة علاقة حتى مع الآثار الغربية على الإنسان، مثل الترسبات الجيولوجية (لأن، في هذا البحث حليث عن علاقات، يمكن أن يكون لطبيعة نصيبها أيضاً) وسيكون من المستحسن عمداً وضع تاريخ لهذا الأمر للرجيد. ولا إبداء الرأي حول أصلاته. ولا يمكن للمرء أبداً أن يجد تاريخاً لشيء لا يتحكم فيه، وبالإجمال لا يمكن للمرء أبداً أن يفسر وثيقة إلا بإدماجها في سلسلة زمنية أو مجموعة مترجمة. وبالتقريب بين الوثائق المبروتجية فيما بينها ثارة، ومع نصوص أخرى لتترات أخرى ثارة أخرى، أستطاع دوم مانيون أن يؤسس علم الوثائق، وبالمثل فإنه من خلال مقابلة الروايات الإيقناجيكية نمياً تاريل النصوص الدينية. وفي أساس كل تنقد تقريباً يوجد عمل مقارن. غير أن نتائج هذه القارنة ليست آلية في شيء، وتنتهي بالضرورة إلى الكشف عن تشابهات ثارة واختلافات ثارة أخرى. وأنه، وفقاً للحالات - فإن اتفاق شهادة مع شهادات مجاورة يمكن أن يفرض استنتاجات معاكسة تماماً.

طلكه لم يكن تراخياً كائناً لئلا، ولم يصبح مجرد قصة من التطور العقل. إلا أن تصديق الأحبار «لخادمه خان خبير» الذي جنود الحرب العنيدية الأولى ١٦١٤ - ١٦١٨. وكان ذلك فيما يبدو، في مدة قصيرة للغاية ولكنه كان، قبل أي شيء، «مركزاً» فيها هو شأن طبيعي. دلائل على الجواهر التي تلمس مصوره الرامن - مثل تغيير موقعه، أو هجوم وشيك، وتبدل - ولم يكن يذهب بعيداً في هذا الشأن، وكنت رؤيته لعداء أقل التصور أو أقل معجرات من تلك المشتركة بين الشعب بالعصر الربييد. وكما أوضحنا من قبل، هلورخ لا يدرس الحاضر عن أمل أن يكشف فيه إعادة إنتاج الماضي على وجه الدقة بل يبحث فيه يسطة الرسائل لهم أصل والشعور به بصورة أفضل. وهو ما تقدمه لنا الأحبار الزائرة بالحرب، إذ لم أسرف في الإشارة إلى نموذج واضح.

(١) بدءاً من هذا العنوان وحتى نهاية الاكتشاف، تشير الملاحظات في أسفل الصفحة إلى التعديلات المضافة على نسخة الكتاب الربييد المترجمة بين السبحة الهائية، التي تشمل بعض التسميات المترجمة معط اليد، وصححت مرفوعة، شامدة تصحيحات معط اليد ولم يكن في النص الرقم أي تسميات معط اليد.

ينبغي النظر أولاً إلى الحالة الأولية للرواية. في مذكراته التي خلعت أبواب قلوب الكثيرين من الشاب روي ماريو، مع كثير من تفاصيل قصة بارعة تلك التي أعطى لسمه من خلالها دور الطل: إذا صدقناه، فإنه قد عبر في ليلة ٧ و٨ مايو عام ١٨٠٩، في قارب صغير للأساطيل المهزومة في الدانوب، وكان النهر آنذاك في عز الفيضان، وذلك من أجل أن يخطف عدة مساجين تمسولين من الضفة. لأخرى كيف يمكن أن نتحقق من هذه الطريقة؟ إن علينا استدعاء مساعدة شهادات أخرى. فلدينا دفتر الأوامر، ورويات الطريق وتقارير الأسلحة الحاضرة: وكلها تؤكد أنه أثناء هذه الليلة الشهيرة كان الفيلق المسماوي الذي ادعى ماريو أنه وجد نجيته على الضفة اليسرى لا يزال يجتاز الضفة للمعاكسة، كما يستخلص من «مراسلات» نابليون أنه في الثامن من مايو لم يكن ارتفاع منسوب المياه قد بدأ فعلاً. وأمره، تم العثور على طلب ترقية بتاريخ ٣٠ يونيو ١٨٠٩، من قبل ماريو ذاته، ومن بين الانجازات التي يشير إليها، لم يذكر أي كلمة للانتصار المزعوم الذي تحدث عنه الشهر السابق. فمن من جهة، أمامنا هذه المذكرات، ومن جهة أخرى، فإن مجموعة من النصوص تكذبها. وهنا من الملائم ترجيح واحداً من الشهادات المتعارضة. وأرى رأي يمكن أن يكون الأكثر احتمالاً: أن يكون في اللحظة ذاتها، رئاسة الأركان والإمبراطور نفسه على خطأ (لأن إذا كانوا، الله وحده يعرف لماذا، قد غيروا عن قصد حقيقة الأمر) أو أن ماريو في عام ١٨٠٩، وكان لا يعرف كيف يتقدم، فكان أن ادعى ما ادعاه، وأنه فيها بعد وقد أصبح طاعاً في الس فإن تبجحاته - وهو أمر شائع في هذه الفترة - هل قلعت ضربة جديدة للحقيقة؟ لا أحد، بالتقطع سيتردد في القول. إنها المذكرات قد كتبت مرة أخرى.

هنا، إذن، قضى عدم الاتفاق على واحدة من الشهادات المتعارضة، وكان لابد أن تقع واحدة منها. وهذا ما تفرز. واحدة من أكثر المسلمات المنطقية عالية، أي أن راقعة لا يمكن أن تكون ولا تكون في الوقت نفسه، أي مبدأ التناقض المرفوع بشدة. ويجدث، عبر العالم، أن بعض التبحرين في العلم، والذين يسعون بنقاد صبر إلى اكتشاف حل وسط بين لمعارات المتناقضة: أي تقليد طفل كان يوجه له سؤال عن الربع ٢٥ وكان أحد محاوره يقول له «٤٥» والآخر يقول له «٨٨» فاعتقد أن الإجابة المصانة هي «٦٦».

يتبقى لدينا حينئذ، القيام باختيار للشهادات المرفوضة وتلك التي سنسخر أن تنقي.

ومرة أخرى، فلنحذر، مع ذلك، من التسليم مقدماً بأن هناك من علوم الطبيعة وعلوم الإنسان، مماثلة حيوتيرية. ومن المنظر الذي تقدمه نافذة يتي يختار كل عالم موضوعه الخاص، هو أن يتم تجميعاً بحصول المشهد، وتقوم العيرياتي تفسير زرقه السماء، والكيميائي بتفسير ماء الجداول، وعالم النباتات بتفسير الأعشاب. أما إعادة تكوير المشهد، كما أراه وكما يثير تخيلتي، فيترك لنفن، إذا رغب الرسام أو الشاعر في لاضطلاح بذلك، فالمشهد، كوحدة، يوجد فقط في وعي. إن خصوصية المنهج العلمي، كما يتم ممارسته وتبريره من خلال التجاح في فروع التعلم المختلفة، تكمن في أنه يترك عن قصد التأمل حتى لا تعد تعرف إلا الموضوعات التأملية. وتبدو العلاقات التي يسميها عقلاً بين الأشياء، راية أمام العارم الطبيعية، وإذا يقوم العلماء بتفكيكها، لإعادة تشكيل التنوع الذي يبدو لهم أكثر أصالة. ومع ذلك يطرح العالم المصوى على عملية مشاكل أكثر دقة. والبيولوجي يمكن له، للدواعي إجرائية، دراسه النفس على حدة وكذلك لظفم والوظائف المخركة، ولا يجهل أنه فوق كل هذا هناك الفرد الذي ينبغي أن يضعه في حسياته. غير أن صعوبات التاريخ هي أيضاً من طبيعة مختلفة. لأن موضوعه بالتجديد هو وعي، الشر في نهاية المطاف، فالعلاقات التي يعقدها هذا الوعي، والتأثيرات بل والاختلاطات التي هي أرضيته تشكل، في نظره، الواقع ذاته.

وحال أن الإنسان الديني والإنسان الاقتصادي والإنسان السياسي، وكل هذه السلسلة من البشر المنتهية بـ IAS، والتي يمكن للبعض أن يجد للذة في توسيع قائمتها، لا يمكن أن نأخذها على أنها شيء آخر غير ما هي عليه في الحقيقة، أي أوام شائعة، وبشرط ألا تصبح مركبة، والكائن الوحيد من لحم وعظم هو الإنسان فقط الذي يجمع كل هذا.

بالأكيد، تمتلك عقولنا تقسيات داخلية، يرى البعض منا أن له أهلية خاصة في طرحها. وكان جوستاف لينوتر يندهش دوماً من وجود كثير من الآباء الطبيعيين بين الإرهانيين وحتى إذا كان أجدادنا من الثوار كانوا من الشارين الأصلاء للدماء، والدين كان رسمهم على هذا النحو يدلغ مشاعر جمهور الطبقة الوسطى، فإن هذه الدهشة، مع ذلك، لم تستمر إلا في الكشف عن سيكولوجيا محدودة إلى حد ما. وكمن من البشر ياروسون، على ثلاثة أو أربعة أصدمة مختلفة، حيوات عديدة كانوا يرغبونها متمايزة وتوصلوا أحياناً إلى الإبداع عليها.

تسلك، على سبيل المثال، في أن مؤلف، لم ينسخ رواية أجنبية، يمكنه أن يوجد في موقع تكرار، عفرناً، لكثير من الأحداث والكلمات، وأن تكون الصدقة وحدها، أو لا أدري أي عناية إلمية مسبقة تكفي لتفسير وجه الشبه البالغ بين بروتوكولات حكماء صهيون وكتيب دعائي صادر عن مجادل غامض يتنص إلى الإمبراطورية الثانية؟ ووفقاً للصدقة، وقبل أن تكتب هذه الرواية، كان ينبغي أن تظهر فكرة المصادقة متأثرة بعامل الاحتمالية بدرجة قوية للغاية، كترت أو قلت، وعلى أساس ذلك ستقبل أو سترفض هذا التشابه اليوم.

تستند رياضيات المصادقة، مع ذلك، على تخيل. ومن بين كل هذه، لمكنت تنطلق، في البداية، من مجرد الشرط: قضيبة خاصة تتخذ مقلداً لهذا الطرف أو ذاك ستكون كحسم غريب في عملية الحساب. وزهر نرد المظنرين هو مكعب متوازن تماماً، فإذا وضعنا تحت أحد جوانبه حبة صغيرة من معدن الرصاص، فإن فرص اللاعبين تتوقف عن أن تكون متساوية. غير أن هذه النزود في فقد الشهادات، كلها تقريباً، مفخخة لأن عناصر إنسانية جد حساسة تتدخل باستمرار للميل بالميزان نحو احتمالية مفضلة.

الحق يقال، إن علماً تاريخياً يشكل استثناء، هو اللسانيات، أو على أية حال أحد فروعها التي تهتم بتأسيس علاقات قرابة بين اللغات. وهذا الفرع المختلف جداً، بمناه، وعملياته النقدية تحديداً، له ملمح مشترك مع كثير من فروع البحث الأخرى، في السعي نحو اكتشاف أنساب وروابط بعينها. والحال أن الشرط التي يسمي من خلالها برهانه، قريبة بصورة استثنائية من الاتفاق الأولى المؤلف للمساواة لدى نظرية المصادقة. ويدين هذا الامتياز إلى الخصوصيات ذاتها لظواهر اللغة.

وقم الأمر، إن العدد اللامتناهي للتغيرات الممكنة بين الأصوات ليس هو ما يؤدي إلى احتمال تكراره على نحو غير متوقع في لغات متعددة، لكن الأكثر أهمية من ذلك أن المعنى الذي نسب لهذه الأصوات هو معنى عشوائي تماماً. كما أن هناك شيئاً أكثر أهمية هو الآخر: ذلك أننا إذا وضعناها جانباً بعض الظارمونييات النادرة لفقدة، فإن الدلالات الممنوحة هذه التجميعات إنما هي دلالات عتبية تماماً. وذلك من قبيل أن تكون التجميعات الصورية، المشددة الاقتراب مش أو (tau) مطروقة على الطريقة الفرنسية أو اللاتينية، فإنها تفيد

في الإشارة إلى ضمير المخاطب [بكل مدنية]، إلا أنه لا يوجد روابط ضرورية معناه. وإذا لاحظنا، آنذاك أن لها هذا الدور في الفرنسية والإيطالية والأسبانية والرومانية في آن معاً، وإذا لاحظنا، في الوقت ذاته، بين هذه اللغات حشداً من المراسلات [من بين أحرار] عبر العرقية أيضاً، فإن التفسير الوحيد المعقول هو أن تكون الفرنسية والإيطالية والأسبانية والرومانية ذات أصل مشترك. ولأن الإمكانات المتنوعة كانت مختلفة بصورة إنسانية، فإن حساباً عملياً على وجه التقريب للفرص، كان له القرار في النهاية.

غير أن هذه البساطة أبعد ما تكون عن الأمور العادية.

كانت هناك وثائق عديدة لحاكم بالقرن الوسطى تعالج موضوعات مختلفة وكانت تعيد الكلمات ذاتها والصيغ ذاتها. وهي إذن كما يؤكد المدافعون عن stilkritik (المهوسون بدقتهم الأساليب) من أن كاتباً عدلياً هو ذاته الذي حرره. ونحن نوافق على ذلك، إذا ما كانت المصادفة وحدها تقع في موضع تساؤل. لكنها لم تكن كذلك قط. فكل مجتمع، بل وكل مجموعة مهنية صغرى لها عاداتها اللغوية الخاصة بها. ولن يكفي إذن إحصاء نقاط السائل، إذ كان لا بد أيضاً من التمييز بينها، للاستخدام البادر. لقد كانت التعبيرات، والاستثنائية وحدها هي تلك التي يمكنها إداة مؤلف: فلنفترض، مع التسليم، بأن التكرارات كانت كثيرة بما يكفي. إلا أن الخطأ هنا، إما هو إعطاء ثقل متساو لكل عناصر الخطأ، كما لو أن شمول القوة المتنوعة للأولية الاجتماعية والتي يرتبط بها كل منها، لم تكن هي قطعة الرصاص الصغيرة التي تعبر توازن الفرص.

ترتبط كل مدرسة من مدارس النسخ العلم، منذ بداية القرن التاسع عشر بدراسة انتقال النصوص الأدبية. ولجأ بسبب للغاية: أي ثلاثة مخطوطات للكتاب ذاته B و C و D. ونلاحظ أن الثلاثة يقدمون الدروس ذاتها، وإن كانت بالطبع معرفة (إنه منهج الأخطاء الأكثر قدماً، أي منهج لاشمان Lachmann). أو بشكل أكثر تكراراً، نكتشف فيها الدروس ذاتها، الجيدة أو السيئة، لكنها مختلفة بالنسبة لأغلب تلك المتعلقة بالمخطوطات الأخرى (وهو الإحصاء الكامل للمنتجات كما دعا إليه دوم كيتان Dom Quentin). وسنقرر إذن كانوا «مقاربين». وسنستعمل، حسب الحالات، أنهم نسجوا بعضهم البعض وفقاً لنظام علمنا

بالعائلة؟ البعض أعتقد بذلك أحياناً: مع أي نتيجة مخيبة للآمال، والعجز الذي نحن فيه اليوم أيضاً عن تتبع التطور الحميم للأسرة الفرنسية يدين ذلك بصورة واضحة.

ومع ذلك، هناك في مفهوم العائلة القانونية، التميز عن غيرها، شيء ما جديد. فم، كثير من المجتمعات، على أية حال، يكون تطبيق، وعلى نطاق واسع، إصدار قواعد القانون ذاتها من عمل مجموعة من الناس التخصصيين، إلى حد م، وفي هذا الدور (والذي يمكن لهم بالطبع أن يمارسوه بالجمع مع وظائف اجتماعية أخرى) تتوقف فهم درجة استقلال كافي، مما يجعلهم يملكون تقاليدهم الخاصة والتي تصل، غالباً، إلى منطق خاص من البرهان. وبالإجمال، يمكن أن لا يكون لتاريخ القانون وجود منفصل، كما هو الحال مع تاريخ القانونيين: لكن هذا الأمر ليس طريقة سيئة للغاية للوجود بالنسبة لنوع من علم البشر. وهذا المعنى، يلقي على طواهر متنوعة جداً، لكن خاصية لعمل إنساني، أمراء غير كاملة بالضرورة، لكنها، في نطاقها، كصفة كثيراً. وتعطى وجهة نظر حول الواقع.

هناك نوع آخر من التقسيم يقدمه العلم الذي تعودنا على تسميته «الجغرافيا البشرية». وهما، فإن زاوية الرؤية لم تؤخذ من عصر عقلية جهاعة، كما هو الحال، دون أن نشك في ذلك أبداً، بالنسبة لتاريخ القانون، ولا، كذلك، كما بالنسبة لتاريخ الدين أو التاريخ الاقتصادي، وإنما تنبع من الطبيعة النوعية لواقع إنساني: سواء أكانت معتقداً، مؤلفاً، تدفقات قلب، واهتزازات روح تكون مستلهمة من قوى متعالية على واقع الإنسانية، أو جهود لإرواء وتنظيم الحاجات المادية. وإنما يتركز التحقيق هنا على نمط آخر من العلاقات، المشتركة لأكثر عدد من الظواهر الاجتماعية، وتدرس «المركية الجغرافية»، المجتمعات في علاقتها مع محيطها الجغرافي: من خلال تبادل مزدوج، وهذا بدعي، حيث يمارس الإنسان بلا توقف، تأثيره على الأشياء، في الوقت الذي تتأثر فيه منه. تأثيرها على الإ: أن وهذا، ليس هناك ما هو أكثر أو أقل، من أفق ينبغي أن يكمله آفاق أخرى. وهذا هو حقاً، في كل نظام بشي، دور التحليل. والعلم لا يفكك الواقع إلا بغرض ملاحظته بصورة أفضل، بفضل أنصاء متقاطعة والتي تتجمع وتتخلل أشعتها باستمرار. وبدأ الخطر فقط عندما يدعى كل منظوره، أنه وحده يرى كل شيء، وعندما تزعج كل مقاطعة من مقاطعات المعرفة لنفسها سيادة قومية.

ولكنهم يستخدمون إذن نوعاً من «التجريد». نعم، لكن لماذا خوف من كلمات؟ ولا يوجد علم يمكنه الاستغناء عن التحريد. كما لا يمكنه الاستغناء كذلك عن الحيال. وأنه لا أمر ذو مغزى، أن يقال ذلك بشكل عابر، أن نفس العقول، التي تدعى محاكاة الأول تظهر بشكل عام تجاه الثانية نفس الزواج السيئ. إنها نفس الوضعية المدرجة بشكل سيء في الحالتين. وعلوم الإنسان ليست استثناء في ذلك. لقد انتقل فرانسوا سيميان مؤرخاً، عن حق، هذه «الرهات الإسمية»، التي يراد لها أن تبقى في «مكانة مفتردة». ففي ماذا تكون وظيفة مثل المادة الخضراء لدى النبات أكثر «واقعية»، بالمعنى المتطرف للواقعية، من الوظيفة الاقتصادية؟ إن أسماها مجرداً لا يمثل أبداً إلا عنزاً في تصنيف. وكل ما لدى المرء الحق في طلبه منه، هو أن يجمع الوقائع وفقاً لنظام مفيد في فهمها إنها فقط التصنيفات العشوائية هي المضرة. وهو أمر على المؤرخ باستمرار أن يجتبره مع أفراده ومراجعه عندئذ يوجد أن يقوم بتجميعه بشكل خاص. ويرغم جمهورهم المشترك لسبر أحوال الواقع، فإنهم يبدؤون بالضرورة من مواقع ذات طبيعة مختلفة.

لدينا، على سبيل المثال، ما يطلق عليه «تاريخ القانون». وقد أشاعت هذا الاسم الكتب المدرسية، وهي مثيرة للدهشة في تحجرها. فلننظر ماذا يعني هذا الاسم عن قرب. إن قاعدة قانونية هي معيار اجتماعي، وهي الزامية بشكل صريح، وتفرض العقاب، من خلال سلطة قادرة على فرض احترامها من خلال نظام محدد من الإكراهات والعقوبات. وعملها يمكن مثل هذه القواعد أن تحكم كافة النشاطات: نحن نخضع باستمرار في سلوكنا اليومي، إلى قواعد أخلاقية، مهنية، مدنية، وغالباً ما تكون أكثر الراسخ من قواعد القانون ذاتها. وتتأرجح هذه باستمرار، وحتى تدمج أو لا تدمج في القانون، فإن هذه القواعد المعترف بها اجتماعياً لا يتغير بالتأكيد مضمونها. القانون، بالمعنى الدقيق للكلمة، هو الإطار الرسمي للوقائع في ذاتها، والتي هي أكثر تنوعاً حتى يكون في إمكانها تقديم، بجراح، موضوعاً للدراسة وحيدة، ولا تستثنى أي منها. والأسرة، كما أنجيل، سواء أكانت الأسرة الصغيرة المكونة عبر الزواج والتي تعيش اليوم حالة تأرجح دائمة بين الانقباض والانتساط، أو الأسرة الكبيرة النسل بالصور الوسطى - وهي تجمع مدعوم بشبكة قوية من المشاعر والمصالح - هل يكفي أبداً، حتى لتعمل داخلها، أن تعدد الواحد بعد الآخر من مواد أي قانون خاص

أن نحدده، أو أنهم يعودون جيئاً، من خلال تسلسل خاص، إلى نموذج مشترك. ومن المؤكد بصورة واضحة أن لقاء مدعوماً بهذا الشكل لا يمكن أن يكون مجانياً. ومع ذلك هناك ملاحظتان، انتبه إليهما المرء مؤرخاً، أحترنا النقد الصحي على التخلي عن كثير من الدقة، شبه الأكيدة، لاستنتاجاته الأولى.

كان الناسخون يصححون أحياناً نموذجهم. وبينما كانوا يعملون بصورة مستقلة الواحد عن الآخر، كانت عادات عقلية مشتركة تمهد أمامهم مثل هذه الاستنتاجات في الغالب الأعم. لقد استخدم تيرنس Terence في مكان ما كلمة Raptio وهي كلمة نادرة الاستخدام بصورة واضحة. وعندما لم يفهمها إثنان من الكتاب استبدلوا بكلمة Ratio. وهو ما أدى إلى تناقض في المعنى، لكنها كانت كلمة مألوفة لديهم. هل كانوا في حاجة، في هذا الأمر، للنشاور أم للتقليد؟ وفي هذا المقام نحن أمام نوع من الأخطاء الذي يعجز، على صعيد «جينالوجيا المخطوطات»، عن إطلاعنا على شيء. إلا أن هناك ما هو أكثر، فلهذا لم يستخدم الناسخ إلا نموذجاً وحيداً؟ لم يكن مجموعاً عليه، فيما كنا نراه عكس، أن نقابل بين نسخ متعددة بمرض اختيار الأفضل من بين ما هو مطروح منها أمامه. بالقطع، كانت الحالة استثنائية جداً في العصور الوسطى، حيث كانت المكاتب فقيرة جداً، وعلى العكس كانت أكثر اربثاً، وفقاً لكل النظائر في المصور القديمة. ترى أي مكان يمكن أن نعلم بهذه النمار المحرمة للتقاليد المختلفة على أشجار Jertité الجميلة، والتي قامت بوضع اللمسات الأولى لطبعات النقدية؟

عندما رأينا، منذ قليل، في تطابق النسخات الإحصائية دليلاً على دقتها، فإذا كنا نفعل سوى تقديم برهان الاحتمالات؟ فتعويض الأخطاء بشكل حصلاً كلاسيكياً لنظرية المصادفة. وهنا علينا أيضاً أن نشبه إلى أن الإرادة، لإسايه يمكن أن تربك الموضوع.

نحن نفترض أخطاء المعنى الشنيع. إنه، في واقع الأمر، يمثل الحالة العادية، بين الوثائق، لصفات الحسابات أو لوائح الأسعار. غير أن هناك أيضاً أخطاء ملموسة. ففي فرنسا بين القرن السابع عشر والثامن عشر نجد أن بعض الضرائب الزراعية المقطرة الدفع بصورة صينية، قد توقفت - مع جريان الزمن - على أن تدفع بطريقة أخرى بغير الصورة نقدية. ومن

أجل التوصل إلى إجماعك، لرحلات مشابهة تكون قد أعدت ستوث، وفقًا لأسعار الأسواق من حيث المبدأ: فإسهم كانوا يقولون عن هذه السنة أنه لكل مكياك فرنسى من القمح، على سبيل المثال، يلزم دفع بعض القود، وكان السادة الإقطاعيون يريدون، بالطبع، تثبيت أسعار أكثر ارتفاعًا عما هو واقعى. وهنا لما كانت السلطة المكلفة بتحديد معيار نظرياً تحت سيطرتهم أو أنها تشاركهم في المنافع، بالتالى كانت الأوراق مزورة. ترى هل نستخدم اليوم مصادراً من هذا النوع لمحرة الأسعار القديمة؟ من ناحية أخرى قد يغشى اتفاق المنحنيات بالأ يعكس سوى موقف مسبق أو تقلبات اللوائح المتغيرة للإدارات الريفية الصغيرة. وتعال ملاحظات عمالة من كثير من الإحصاءات، لجركية، وكذلك حسابات أسعار العقارات التى نلتمسها من أعمال السع المسجلة: حيث كان البعض يريد الإفلات من الضرائب، فون المبالغ المعلقة، اعتيادياً، تنخفض بصورة منتظمة. وهنا ما الذى ستكون عليه قوانين سحب اليانصيب، إذا كانت الكرات الحمراء أو البيضاء لديها الرغبة فى الغاهم لتسوية نظام ظهورها، من خلال تلك اليد التى تمتد إلى الكيس^(١)؟

هكذا، وكما نظرت فلسفة القرن الثامن عشر، مع قولنى، فإن أغلب مشاكل النقد التاريخى هى - بحسب - مشاكل احتمالات، لكنها فصل إلى حد أن مثل هذا الحساب الأكثر براعة ينبغى أن يعترف بعدم قدرته على حلها. ليس فقط لأن معطياتها ذات طبيعة بعيدة المدى من التعقيد. كما أنها، فى ذاتها، تبقى الأكثر استعصاءً على أى ترجمة رياضية. فكيف نحسب، على سبيل امثال، الأفضلية الخاصة التى تمنحها شركة ما لكلمة ما أو لعادة ما؟ نحن لن نتخلص من صعوباتنا حول علم فومات ولا بلاس واميل بوريل. وعلى أية حال، طالما يضع نفسه، بشكل ما، على الحد الأقصى لتطعنا، يمكن لنا وإحلال هذه - أن نطلب منه أن يساعدنا، من أعلى، على أن نحلل بصورة أفضل طريقتنا فى البرهان والقيام بها بصورة أفضل.

وعندما لا تكون قد مارسنا بأنفسنا أعمال التبحر العلمى، فإننا لن ندرك بصورة جيدة كم يشغرون، عائدق من قبول الرأى بأن الاتفاق قد يحدث مصداقته. ولأن تعبيرين مشابهيين

(١) هذه الفقرة بيز، قوسية، كانت قد حذفت من الطبعة التى أعدها لوسان دشر. وهى موجودة فى المخطوط الأصل وفى نسخة كزوبونية، وفى الاثنين بدور تصحيحية بخط اليد.

عندما نعتقد أننا حددناه فى مسار التطور الإنسانى، قرابة بين بعض الطواهر، فماذا نعلمى بذلك إلا أن كل نمط من المؤسسات، ومن المعتلات، ومن الممارسات، وحتى الأحداث المتميزة، يظهر لنا معبراً عن اتجاه خاص، وحتى نقطة ما، ثابت للفرق أو المجتمع؟ هل يمكن للمرء أن ينقضى، على سبيل المثال، أنه عبر كل هذه التضادات، لا يوجد بين العواطف الدينية شيئاً ما مشتركاً؟ ويتجى عن هذا، بالضرورة، أن المرء سيكون بإمكانه فهم واقع إنسانى بصورة أفضل، إذا امتلك فهمها لوقائع أخرى من النمط ذاته. فاستخدام الفترة الأولى من العصر الإقطاعى للعملة النقدية كمعيار لقيمة أكثر كثيراً منها كوسيلة للدفع، كان يختلف بصورة عميقة عما كان الاقتصاد الغربى يسمح لها حوالى عام ١٨٥٠، وبين النظام النقدى فى أواسط القرن التاسع عشر وقرننا، التضادات، بدورها، ليست أقل حدة. ومع ذلك، قد لا يجد متبحر علمى، لم يكن قد تعرف على العملة النقدة الإحوال العام ألف، إمكانية التوصل بسهولة، كما أرى، للإسك بأصالة استخدامها فى هذا الوقت. وهو ما يبرر بعض التخصصات بصورة عمودية نوعاً ما: معنى أن، وهذا بدعى، التخصصات مشروعة على الدوام، بوصفها علاجاً لنقص سعة أفقنا وقصر فترات عمرنا.

هناك ما هو أكثر من ذلك، فالمرء عندما يحمل القيام بتنظيم عقلانى لمادة قدمت إليه فى صورتها الخام، قد لا يصل فى نهاية المطاف، إلا إلى تنهى الزمن، وبالتالى، نفس التاريخ ذاته. لأنه فى هذه المرحلة من اللاتينية، هل فى مقدورنا أن نفهمها إذا نحن انفصلنا عن التطور السابق للغة؟

وبالتأيد أيضاً لم يكن لهذا الشكل فى الملكية أو من المعتقدات بدايات مطلقة. وبما أن مسار تطورها يسير من الأكثر قدماً إلى الأكثر حداثة، فإن الطواهر الإنسانية تدار، قبل أى شىء، عبر سلسلة من الطواهر المشبهة، وبانقيام بتصنيفها عبر أنواع يعنى إذن التركيز على خطوط القوة لعمالية مركزية.

لكن، قد يعترض البعض على ذلك بأن المخطوط^(٢) التى تقيمونها بين الأنماط المختلفة للنشاط الإنسانى، لا توجد إلا فى عصمكم، ولا توجد فى المواقع الذى يحتل فيه كل شىء.

(٢) ببد كلمة وسفى، هناك ثلاث أو أربعة كلمات مشطوبة بصورة لا يمكن تغييرها...

يختار ويفرز، وبكلمة واحدة محلل، وعلى سسل الدلالة، فإنه يسعى وراء التشابهات في سبيل المقارنة بينها.

تحت بصري نقش على مقبرة رومانية؛ نص من قطعة واحدة، ودو غرض واحد، ومع ذلك، فإن ما يكشف عنه أكثر تنوعاً^(١) مما نتظره من ضربات سحرية على يد التعبير العلميين.

إذا كنا من المهتمين، بشكل خاص، بشؤون اللغة، فالكلمات وبناء الجمل مستكشف عن حالة اللغة اللاتسنة كما كان المرء يتحدث في كتابها في ذاك الزمان والمكان، ومن خلال الاستشفاق عبر هذه اللغة النصف - عائلة ربما تكون قادرين على معرفة اللغة السائدة (أو لغة الحياة اليومية) آنذاك. هل يصل اختيارنا نحو دراسة المعتقدات؟ نحن هنا في قلب آمال ما بعد الحياة. هل نتجه نحو دراسة السياسة؟ سوف نغيب باسم إمبراطور، أو بتاريخ متعصب قاض. هل نتجه إلى دراسة الاقتصاد؟ قريباً يكشف هذا النقش على المقبرة الرومانية عن مهنة مجهولة، وهلم جرا يصدد إمكانات أخرى. دعونا ننظر الآن، إلى لحظة ما في مسار حضارة، ويكون لها وثائق عديدة ومتنوعة بدلاً من وثيقة معزولة. ولا بد أن يوجد أحد من البشر الذين عاشوا في تلك العرة، لم يشارك بشكل متزامن تقريباً، في جوانب متعددة من النشاط الإنساني: من مهم لم يتكلم أو يتحاور مع جيرانه، ومن منهم لم يكن له آفة، ومن منهم لم يمارس الإنتاج متاجراً أو كمجرد مستهلك، ومن من الذين لم يشاركوا في الأحداث السياسية لم يكن له خبرة، على الأقل بتألقها. وفي كل هذه النشاطات بدون اختيار وترتيب، وبالقفر في معظمها مجتمعاً، هل نجذب بالنظر إلى كل هذه النشاطات بدون اختيار وترتيب، وبالقفر باستمرار من واحدة لأخرى، ونعص حانه الاختلاط التي تراها في كل وتبعه وفي كل حيله فردية أو اجتماعية؟ سيكون ذلك تضحية بالوضوح، ليس بالنسبة للنظام الحقيقي للواقع - والذي يتكون من قرابات طبيعية وروابط عسقة - ولكن بالنظام الظاهر قائماً لتمامن. إذا لا يمكن خلط دفتر التجارب مع يوميات كل ما يحدث في العمل دقيقة بدقيقة.

(١) هذه الصورة شفرة لتصحيح باليد أصل النص المعروف، وكانت مرسومة إلى درجة كد من المستحيل معها قراءة كل كلماتها ولا يمكننا إذن تقديم نسخة ما قبل التصحيح.

يوجدان في قانون ساليك وفي مرسوم كلوفيس، ألم نر حالاً لماثياً محترماً يؤكد على أن هذا القانون لا بد أن يكون لهذا الأمير؟ فلنترك جانباً الكلمات الشائعة المستخدمة هنا أو هناك. قد تكفي درجة بسيطة من النظرية الرياضية لتجنب الخطوط الزائفة. وذلك لأنه عندما تلعب المصادفة دورها بحرية، فإن احتمالية لقاء فرد أو عدد قليل من المصادفات هي بصورة نادرة ضمن نظام المستحيل. لا يسم كثيراً أن تبدو لنا مدهشة، إذ أن مفاجآت احسن المشترك نادراً ما تشكل، انطباعات لها كثير من القيمة.

يمكن للمرء أن يستمتع بحساب إمكانية ضربة مصادفة تحدث موت شخصين مختلفين في سنتين مختلفين في اليوم ذاته من الشهر ذاته. الاحتمال هنا يساوي $\frac{1}{365}$ ، فنقل الآن (على الرغم من سخف هذه المسألة)، أن الجماعتين الدينيين اللتين أتساها كل من جون كولومباني وأبياس ليو لا قد تم حلها من قبل الكنيسة الرومانية. ويسمح لنا فحص القوائم الباليوية بتأسيس احتمالية بنسبة $\frac{1}{11}$ لإلغاء الجماعتين على يد اثنين من الباباوات اللذان كان لهما نفس الاسم، وتراوح نسبة الاحتمالات المباشرة بوقوع حادثي الوفاة في نفس اليوم من نفس الشهر، واحتمال أن يكون نفس الباب هو الذي قام بعملية الأداة بين $\frac{1}{365}$ و $\frac{1}{11}$. بالطبع لن يكون أي شخص ذي طبيعة مغامرة راضياً بمثل هذه الاحتمالية، لكن العلوم التجريبية تنظر إلى هذا الأمر باعتباره غير ممكن تطبيقاً وفقاً للمقاييس الأرضية، حتى إذا كان الأمر بين الباباوات من $\frac{1}{11}$. إننا هنا قطعاً أمام مثال واضح ومؤكد لكلا القديسين

إنها فقط التوافقات المتركمة، والتي يحتمل أن تصير مهملة بصورة عملية: لأنه، وفقاً لنظرية معروفة جيداً فإن احتمالية وجود حالات أولية تنوع فيما بينها لكي تعطي احتمالية لجميع، ما كانت الاحتمالات مكونة من أجزاء، فإن ما تنتجه يكون، بالضرورة، أقل من مكوناتها. وهناك مثل شهير في اللسانيات، لكلمة Bad التي تعني في الإنجليزية كما في الفارسية «سيء»، وذلك بدون أن يكون للمصطلح الإنجليزي ولفارسي أدنى علاقة مشتركة. ومن يدعى تأسيس علاقة نسب حول هذا التطبيق المعزول قد يخطئ ضد القانون الرئيسي لأي نقد للمصادفات: إن أعداد الكبرى هي وحدها ما يستحق الإشارة. وتبدأ المطابقات أو الاختلافات الضخمة من تنوع حالات خاصة. بالإجمال، تدمر التأثيرات العارضة نفسها.

وفي مقابل ذلك كله، هل نتظر، إلى كل عنصر بصورة مستقلة عن الآخرين؟ لم يعد عمل هذه التوقعات مما يمكن إيعاده، وحتى إذا كان زهر النرد مزورًا فإن الضربة المعزولة ستظل دائمًا أكثر صعوبة في التنبؤ بمصير اللعبة، وبالتالي، وبعد أن تكون اللعبة قد تمت، تصبح موضوعًا لكثير من التنوع في التفسيرات. لذا، بقدر ما نتغلغل إلى الأمام في التفاصيل، فإن احتمالات التقد ستسير في طريق التدهور. لا يوجد غالبًا أي كلمة، معزولة، في «أورستى Orestic» كما نقرأها اليوم، وتكون على يقين بأنها تقرأها هذه الأيام كما كتبها إسبيليوس. ومع ذلك لا نشك أن «الأورستية»، في معظمها هي حقا لاسبيليوس. فهناك يقين في الكل بأكثر من أحد مكرراته.

لكن بأي معيار، مع ذلك، يمكن لنا أن نتحدث عن هذه الكلمة الكبيرة التي هي «يقين»؟ لقد اعترف مليون من قبل، بأن فقد المواقف لا يمكنه أن يصل إلى اليقين «الميتافيزيقي»، ولم يكن خطئنا في ذلك، أنه يمكننا عبر تبسيط الأمر فحسب أن نستبدل لغة الاحتمال بلغة البديهية.

لكن نحن نعرف اليوم أكثر عما كان عليه الأمر في زمن مايرن، أن هذا الاتفاق لم يكن خاصًا في شيء. وليس «استحيلاً»، بالمعنى المطلق للمصطلح، أن «منحة قسطنطين» ليست أصلية تمامًا كما أن «جرمانيا» لتاسيت - وفقًا لمقدمة البعض من التبحرين علمياً - ليست زائفة. وفي المعنى ذاته، ليس «استحيلاً» كذلك عندما نطرق بالمصادفة لوحة مفاتيح الآلة الكاتبة، ألا يوجد مقلد يعيد مصادفة تشكيل حرف بحرف في «منحة قسطنطين» أو «جرمانيا». لقد قال كورنو «الحدث بصورة طبيعية مستحيل»، وليس شيئاً آخر غير الحدث هو ذلك الذي تكون احتماليته ضعيفة للغاية. ولا يتميز التقد التاريخي، بقصر مساهمته على تقدير المحتمل وغير المحتمل، عن أغلب علوم الواقع، إلا من خلال سلم درجات أكثر تمييزاً بدون شك.

هل يوسع المرء أن يقدر بدقة ذلك المكسب الكبير الذي شكله ظهور منهج عقلاني للتقد، مطلقاً على الشهادة الإنسانية؟. وأعني بمكسب ليس فقط للمعرفة التاريخية، وإنما للمعرفة على وجه العموم.

منذ عهد قريب، كان كل واقع مثبت هو واقع مقبول، في ثلاثة أرباع الوقت، إلا إذا كان لدينا مقدماً أسباباً وجيهة للشك في كذب الشهود أو الرواة. وليس علينا أن نقول: هذا

هناك شيء آخر أيضاً، هل قاد هذا الجبرال قواته، مصادفة، نحو الهزيمة عن تصميم؟ لن يتردد المرء في وصفه بالحياة، لأن ببساطة تامة هكذا تسمى الأشياء. وقد يكون من جانب التاريخ، بمثابة نوع من الإدعاء البالغ رفض التخفيف من هذا الأمر عبر الفروقات البسيطة والمباشرة للاستخدام العام. وسيظل البحث، بعد ذلك، عما يمكن أن نقوله الأخلاق العامة للزمن أو للجماعة عن مثل هذا العمل. فالحياة، على طريقتها، ربما تكون نوعاً من النزعة الإمتالية (Conformisme)، مثلها كان عليه الأمر مع مرتزة روما القديمة.

وفي النهاية هناك كلمة واحدة تسود وتضفي دراساتها هي «التهم». ولا يعني هذا أن المورخ الجيد يكون بعيداً عن الأهواء. لقد كانت له هذه الأهواء في كل الأحداث. ونحن لا نخفي أن كلمة التهم مثقلة بالصعوبات لكن أيضاً بالأمال، وهي كلمة، بصفة خاصة، تحمل سنان ومية. وحتى في الحياة الدنيا، تصدر أحكاماً كثيرة جلاء، فمن الشائع الخفاف «إلى الموت». ولا تفهم أبداً بما فيه الكافية، فمن يختلف عنا - سواء أكان أجنبيًا أو خصماً سياسيًا - نراه، بالضرورة، شريفاً. وحتى في إدارة الصراعات، التي لا مفر منها، فإن المزيد قليلاً من ذكاء العقول سيكون ضرورياً، أو بالأحرى لتجنبها، عندما يكون الوقت لا يزال متاحاً. ويمكن للتاريخ أن يقرودنا للشقاء من هذا المضال بشرط أن يتخلى بنفسه عن قاعدته الزمنية. فهو يختص على خبرات واسعة من التنوع الإنساني، ومسورة لقاءات طويلة مع البشر. والحياة مثل العلم، لديها كل ما يدعو لكي يكون هذا اللقاء ودياً.

٢- من تنوع الوقائع الإنسانية إلى وحدة الوعي

التفهم، مع ذلك، ليس موقفاً سلبياً في شيء، وممارسة العلم تتطلب دائماً شيئين، مادة موضوع لكن أيضاً إنسان. والواقع الإنساني، مثل الواقع الفيزيائي شاسع ومتنوع. إذا أننا لو أخذنا له صورة فوتوغرافية، وإذا تخيلنا أن فكرة إعادة إنتاج شاملة بصورة آلية يمكن أن يكون لها معنى، فإنها ستكون غير مقروءة. هل يمكن أن نقول أن بين ما كان وبيننا تقف الوثائق كأول شاشة بين الماضى والحاضر؟ بالتأكيد، غالباً، غارس الوثائق إقصاء بصورة عشوائية. ومن جانب آخر، لا تنظم أبداً موضوعها، في أغلب الأحيان، وفقاً لمطلوبات الوعي الباحث من معرفة. ومثل أي عالم، ومثل أي عقل يدرك الأمور، فكذلك المورخ

يريدون، قبل أى شىء، تشجيع امتلاك الأرض من قبل بسطاء الأرياف، وتحقيق التوازن في الميزانية، كانوا يفضلون تخفيف معاناة فقراء الفلاحين وضمان وفائهم للنظام الجديد، فهل كانوا على خطأ؟ هل كانوا على صواب؟ في هذا الشأن هل يفيدنى كثيراً الرأى المتأخر المورخ؟ نحن نطلب منه فقط ألا يركن إلى اختياره الخاص، إلى درجة لا يدرك فيها إمكانية وجود اختيار آخر في ذات الوقت. ومع ذلك، فإن الدرس المستخلص من التطور العقلي للإنسانية واضح: أثبتت العلوم دائماً أنها أكثر خصوصية وبالتالي، أكثر فائدة، في نهاية المطاف، للممارسة العملية، عندما تخلت، عن قصد، عن المركزية الإنسانية القديمة للخير والشر. وقد يضحك المرء اليوم إذا كان هناك كيميائى يضع الغازات الشريرة مثل الكلور في جانب والغازات الخيرية مثل الأوكسجين في جانب آخر. وإذا كان علم الكيمياء في بداياته، قد أقر مثل هذا التمييز فربما قد غامر بشدة في الانزلاق بعيداً عن معرفة المادة.

ومهما يكن من أمر، فلنحذر في دفع المائلة مسافة أبعد. فالنسيات التقنية لـعلم الإنسان قد يكون لها دائماً ملاحظتها الخاصة. بينما تلك الخاصة بعلوم العالم الفيزيائى فإنها تسبب النزعة العاتية. وكلمات مثل النجاح والإخفاق، وسوء الحظ واللباقة، قد لا يكون لها، في أفضل الأحوال، سوى دور مجازى ملهى فائئ بالمخاطر، بينما هى على النقيض تنتمى للمفردات العادية في التاريخ، لأن التاريخ يتعامل مع كائنات قادرة، بالطبع، على متابعة غايات عن قصد. يمكن للمرء أن يقبل أن قائد جيش، منخرط في معركة ويسعى إلى كسبها، وإذا خسرها، وكانت القوات متعادلة من جانب إلى آخر، فإنه سيكون من المثير غمماً القول أنه أدار المعركة بشكل سيئ. لكن هل كانت هذه المعركة مأكوفة بالنسبة له؟ ولن يخرج المرء من أكثر أحكام الواقع تدقيقاً إلا بملاحظة أنه لم يكن بدون شك إستراتيجى جيد. وكذلك الأمر ذاته عندما نتحدث عن عملية تغيير تقدي، والتي موضوعها، كما أفترض، هو تشجيع المدين على حساب الدائن، ووصف هذا الموقف بأنه ممتاز أو باتس قد يعنى الانحياز لأحد الطرفين، وبالتالي نقل إلى الماضي، بصورة متعسفة، مفهوم ذاتى دائماً عن الرأية العامة. لكن إذا تخيلنا، مصادفة، أن العملية الموجهة إلى تحقيق وزن الديون، قد انتهت عملياً - وهذا ما شوهده - إلى نتيجة معاكسة، مسقولة «إنها فشلت» بدون أن تفعل شيئاً سوى ملاحظة الواقع بأمانة. وكما في أى سيكولوجيا فإن العمل غير الناجح، هو واحد من العناصر الأساسية للتطور الإنسانى.

ما كان عليه الحال منذ زمن بعيد. وقد أظهر لوسيان فيشر هذا الأمر ببراعة عن فترة النهضة: لم يكن المرء يفكر، ولم يكن يتصرف بشكل آخر في قدرات قريبة [أنا] بما يكفى حتى يتطال أعمالهم الرئيسية غذاءً سحياً لنا. ولا ينبغي علينا أن نقول: كان هذا بالطبع موقف الجمهور الساذج، ذلك أنه حتى أيامنا هذه، والتي نرى في أغلبها أكثر من شبه عالم، مع الأسف! صعدون باستمراء، دفع حضارتنا الهشة نحو الهاوية أو الجنون. ولم يكن بوسع أكثر العقول رسوخاً أن تثلث آنذاك ولا يمكنها أن تهرب من الأحكام المسبقة الشائعة. ألم يقل أحدهم أن منطق من الدم كان يساقط؟ إذن كان هناك منظر من الدم؟^(١)

ألم يكن مونتاني يقرأ لدى القدماء الفضلين لديه عن هذا المذنبين أو ذاك عن بلاد يولد فيها الناس بلا رأس، وعن القوة العجيبة لسماك الريمورا (Remora)؟ وكان مونتاني يدعيها بدون استثناء ضمن أدلة ديالكتيكه: [إذا كان قادر على أن يظهر ببراعة آلية خبير كاذب، فإن الأفكار المسبقة كانت تراه أكثر حذراً من الوقائع المفترض أنها مثبتة]. هكذا كان يسيطر الراوى المعجزة وفقاً للأسطورة الربلية، على العالم الطبيعى كما على عالم البشر وإن كان العالم الطبيعى دوماً أكثر من عالم البشر. ولأنه مزود بخبرة أكثر مباشرة كان المرء يشكك في حدث إنسانى أكثر من حدث ينتمى لظاهرة جوية أو حادثة مفترضة للحياة العضوية. وإذا كانت فلسفتك تنفر من الهجرة أو إذا كان ديك يتفر من معجزات أديان أخرى ينبغي أن تبذل جهداً شاقاً لتعزو هذه التجليات الخارقة إلى أسباب يفترض أنها واضحة بقدر كاف. وسواء أكانت أعمالاً شيطانية، أو سافلاً عصبياً حقيقياً، فإن هذه الأسباب تستمر في الارتباط بنظام من الأفكار والصور الغريبة تماماً عن ما نسميه اليوم الفكر العلمى. إن نفى الظاهرة ذاتها لم يخطر قط على البال بقدر كبير من الجراءة. لم يكن بومبارنى [زعيم مدرسة غربية إلى حد بعيد عن الحزاق المسيحية] يعتقد أن الملوك كان بإمكانهم بوصفهم ملوكاً أن يعالجوا المرضى بلمسهم ويدهن أجسادهم بزيت مقدس من فارورة مقدسة. لم يكن ينجح، مع ذلك، على العلاجات^(٢). وكان يؤمن بأن ذلك يتم من خلال خاصية فسولوجية يمتلكها

(١) دودة بنط اليد، مرشدة III، بادئة هذه الفقرة: نقل نسخة المخطوط التي استخدمت في القرن قبل التصحيحات بخط اليد. ويتطابق نصها مع المصادق هنا.

(٢) تنهى هنا دودة المخطوط المرقمة بـ III 37.

المؤكد بالوراثة^(١): كان الامتياز العجيب للوظيفة المقدسة يعود إلى خصائص علاجية كامنة في الرضاب المميز لسلالة الملوك الحاكمة.

والحال إذا كانت صورتنا عن الكون قد استطاعت أن تتطهر من كثير من الأعاجيب الوهمية عبر اتساق الأجيال، فإننا ندين بذلك، بالطبع، وقبل أي شيء إلى مفهوم تطور بيطة، عن النظام الطبيعي الذي تحكمه قوانين ثابتة. غير أن هذا المفهوم لم يكن يتأسس بصورة راسخة، والملاحظات التي كانت تناقضه لم يكن لها أن تلغى إلا بفضل العمل المباشر لطيرة تقليدية متواصلة حول الإنسان ذاته بوصفه شاهداً. إننا قادرون من الآن فصاعداً على كشف وتفسير عيوب الشهادة في آن واحد. لقد اكتسبنا الحق في ألا نعتقد بها دائماً، ذلك أننا نعرف بشكل أفضل عبر الماضي متى ولماذا لا ينبغي أن نعتقد بها. وهكذا نجعت الملوم في رفض كثير من القضايا الزائفة التي لا قيمة لها.

لكن هنا، كما في مواضع أخرى، لا تفصل المعرفة الخاصة عن الفعل.

إن ريتشارد سيمون، والذي يحمل اسمه في جيل مؤسسينا مكانه في المرتبة الأولى، لم يترك لنا فقط دروساً في التأويل مثيرة للإعجاب، بل رأياه أيضاً، ذات يوم، يستخدم ذكاهه الحاد لإنقاذ بعض الأبرياء الذين تم اتهامهم بجريمة شعائر. ولم يكن في المصادفة ما هو مجاني. لقد كانت الحاجة من الجانبين إلى النزاهة العقلية هي ذاتها، كما أن نفس الأداة قد خدمت الجانبين. وكان العمل الشرعي المدفوع دوماً بالعلاقات مع الغير ليس إثارة للاهتمام من البحث عن تقدير مدى صحتها بدقة. وهي لا تملك، لهذا، وسائل منايرة. فلنقل بصورة أفضل: إن وسائله كانت تلك الرسائل التي أسسها التبحر العلمي. في فن قيادة الشك بصورة مفيدة، ولم تقم الممارسة القضائية بغير المضي دوراً تباطئ، حذو طريق البيولاندين والبنديكتيين، كما أن علماء النفس أنفسهم لم يكونوا متنبهين للملك إلى أن عثروا على بنتهم في الشهادة والملاحظة المباشرة، تلك التي تثار على موضوع بعينه وذلك بعد أن كان اضطراب ذاكرة الماضي قد بدأ يخضع لبرهان عقل لتوضيحه. في زماننا هذا، والذي أصبح يعرض أكثر من أي وقت مضى لسموم الكذب والخبر الكاذب، فيا لها من فضيحة عندما نرى

(١) يفترض أن الطبيب الملكي كان يبلل إصبه كل مرة قبل أن يلمس المريض.

له ما هو أكثر تنوعاً، بالسليقة، من مثل هذه المراسيم النافذة بكل ثقلات الوعى الجماعى والنزوات الشخصية، فإن التاريخ، يساهم في الغالب أن تتقدم مثل هذه الأمور على منطق الخبرة، فإنه يعطى محايًا صورة للعلم الأكثر اعتقاداً لليقين. وكم من التهم جاءت في أعقاب عمليات رد اعتبار لا طائل من ورائها. فيا أنصار رويسير! ربا أعداء رويسير! استحلفكم بحق الشفاعة أن تقولوا لنا أولاً: من كان رويسير؟^(٢)

وإذا كان الحكم لا يفعل شيئاً سوى أن يتبع التفسير، فإن القارئ قد لا يكون أمامه سوى أن يقلب الصفحة. وطالما لا مفر من إصدار حكم، لسوء الحظ، ينتهى المرء، بصورة قدرية تقريباً، بأن يفقد حتى مذاق أن ينسر الأمور، وعندما تختلط أهواء الماضي مع الأحكام المسبقة للحاضر يختزل الواقع الإنسانى إلى لوحة ليس فيها سوى الأبيض والأسود، وتضطرب الرؤية في مثل هذا العالم المائى.

ومن تبلل حذرنا مورتانى: «في اللحظة التي يحل فيها الحكم إلى جهة، لا يمكن أن نبتدع عن لوى وحرف السر هذه الطريقة». وفضلاً عن ذلك، لى نغفل داخل وعى شخص آخر، تفصلنا عنه عدة أجيال تقريباً، علينا أن نفحص ذاته الخاصة، ولكى نقول له ما نفكر فيه عن واقعه علينا أن نبغى على ذاتنا كما هي، وهو جهد بالتأكيد أقل مشقة. وكم يكون الأمر أكثر سهولة في الكتابة مع أو ضد مارتن لوتر من التقيب داخل روحه، أو في الإيمان بالبابا جيجر جوار السابع حول الإمبراطور هنرى الرابع، أو هنرى الرابع حول جيجر حوار السابع، من توضيح الأسباب الحقيقية لوأحدة من كبريات دارما الحضارة الغربية!

وبعيداً عن الصعيد الفردى، فلننظر كذلك إلى مسألة الثروات القومية. عندما قامت الحكومة الشورية بإلغاء التشريع القديم وقررت بيع بعض الثروات القومية بالتقسيط ويلدون مزاد، احتج ضد هذه السياسة بشدة بعض الباحثين في هذه الأيام. أى شجاعة تلك، وهل كانوا يتجاسرون على الحديث بهذه اللغة لو كانوا يجلسون في مقاعد المؤتمر، أو بالقرب من المقصلة. ومثل هذا الاحتجاج العنيف من بعض الباحثين اليوم يثير السخرية. وكان من الأفضل لهم البحث عما كان يريد «حقاً» رجال السنة الثالثة من الجمهورية. كانوا

(٢) السؤال هنا عن «مادام» كان رويسير وليس جود من «كان رويسير» (الترجمة)

أن النهج النقدي لا يجد مكاناً له غير ركن صغير من برامج التعليم! ذلك أنه توقف عن ألا يكون سوى مجرد مساعد متواضع لبعض أعمال مراكز أبحاثنا. ومع ذلك، تنفتح أمامه، من الآن فصاعداً، آفاق أكثر اتساعاً، وبحق للتاريخ أن يحسب من بين أجهاد الأكثر تأجيلاً، أنه بإعداده تقنية يعينها إنها يفتح أمام البشر طريقاً جديداً نحو ما هو حقيقي وبالتالي ما هو حق.

ويُفسر تشهر مهمته، بينما في حالة القاضي مازال أمامه مهمة إعلان حكمه، وعندما يفرض هذا القاضي الصمت على كل ميل خاص بداخله، هل ينطق وفقاً للقانون؟ سيُقدّر أنه معتبر من الميول، وسيكون كذلك، في الواقع، من منظور القضاة وليس من منظور العلماء. لأن المرء قد لا يدين أو يبرئ بدون أن يتحاز إلى مجموعة من القيم، لم تعد تنتمي إلى أي علم وضيعي. عندما يقتل إنسان آخر فهذا واقع قابل للتأكد منه بصورة تامة، لكن عقاب القاتل يفترض أن تأخذه كملتبس؛ وهو أمر - إذا اعتبرنا كل شيء - ليس سوى رأي لم تتفق حوله الحضارات.

ولفترة طويلة عرف عن المؤرخ أسلوب قاضي الجحيم هادس (ملك الجحيم اليونانية)^(٥٠)، المكلف بتوزيع المديح أو التوبيخ على الأبطال الموتى. لا بد من الاعتقاد أن هذا الموقف يستجيب لغريزة متجذرة بقوة، إذ أن الأساتذة الذين كان عليهم أن يصححوا أوراقي طلابهم يعرفون جيداً كم كان هؤلاء الطلاب محدودين صعوبة في الامتناع عن لعب دور أوزريس أو مينوس، من وراء مقاعدهم الدراسية. وتعتبر كلمة بلسكال عن هذا الأمر، أكثر من أي وقت مضى، «الناس جميعاً يلعبون دور الإله عندما يصدرون أحكاماً؛ هذا جيداً أو هذا سيء»، وينسى المرء أن حكم قيمة^(٥١) ما لا يأخذ مشروعيته إلا بوصفه إعداداً لعمل أو لعننى بالارتباط فقط مع نظام من المرجعيات الأخلاقية المتفق عليها. وبصورة شائعة تفترض علينا الحاجة إلى السلوك، في الحياة اليومية، مثل هذا الأمر بصورة إيجابية. وهنا وحيث لم يعد في إمكاننا فعل شيء، وحيث النماذج المثالية المتشعبة تختلف جذرياً عما للبناء لم يعد أمامنا سوى الخبرة، هل نحن متأكدون إذن من أنفسنا ومن زماننا حتى نميز بين العادل والملمون في جبل آياتنا؟ وكم هو عجب أن نرفع المعايير، النسبية تماماً، لفرء أو حزب أو جبل، إلى المطلق، بل وحتى نحولها إلى معايير تشبه الطريقة التي حكم بها سيلا روما أو التي حكم بها ريشيليو ولايات أعظم ملك مسيحي! وفضلاً عن ذلك، وبما أنه ليس هنا

(٥٠) حيث كانت المحاربة الأخلاقية بين قاضي ملكة العالم السفلى (هادس) والأبطال الموتى ذات شأن عظيم في الأساطير اليونانية. (المترجم)

(٥١) ثلاث ورقات بخط اليد مرقمة على التوالي: ٤-١٧، ٣-١٧، ٢-١٧ تشمل، بدءاً من كلمات «أن حكم قيمة حتى عنوان القسم الثاني من الفصل: «من تنوع الواقع الإنسانية إلى وحدة الوعي»، النص المستمد هنا هو الذي استخدم في عملية الكتابة على الآلة.